"الحب في زمن الكوليرا بنكهة مكسيكية ولمسة جريمة"

الجريمة المكسيكية

إيكتور آجيلار كامين

ترجمة : محمد عبد العزيز

العربي للنشر والتوزيع

روايات مترجمة

الجريمة المكسيكية

رواية من المكسيك

ترجمة: محمد عبد العزيز

إيكتور آجيلار كامين

الجريمة المكسيكية

تأليف: إيكتور آجيلار كامين

ترجمة: محمد عبد العزيز

تحرير ومراجعة: هدى فضل

مُراجعة لغوية: محمد حامد بكر

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيداع: 2019/23696

الترقيم الدولي: 9789773195434

تصميم الغلاف: سارة حسام

© جميع الحقوق محفوظة للناشر

60شارع قصر العيني 11451-- القاهرة

ت 27954529 - 27921943 فاكس 27947566

www.alarabipublishing.com.eg

©Héctor Aguilar Camín

c/o Schavelzon Graham Agencia Literaria

www.schavelzongraham.com

First published as *Toda la vida* in 2016.

بطاقة فهرسة

كامين، إيكتور آجيلار

الجريمة المكسيكية رواية من الأدب المكسيكي/ تأليف: إيكتور آجيلار كامين؛ ترجمة: محمد عبد العزيز.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2019.

ص؛ سم.

تدمك 9789773195434

1- القصص المكسيكية

أ- عبد العزيز، محمد (مترجم)

ب- العنوان 863

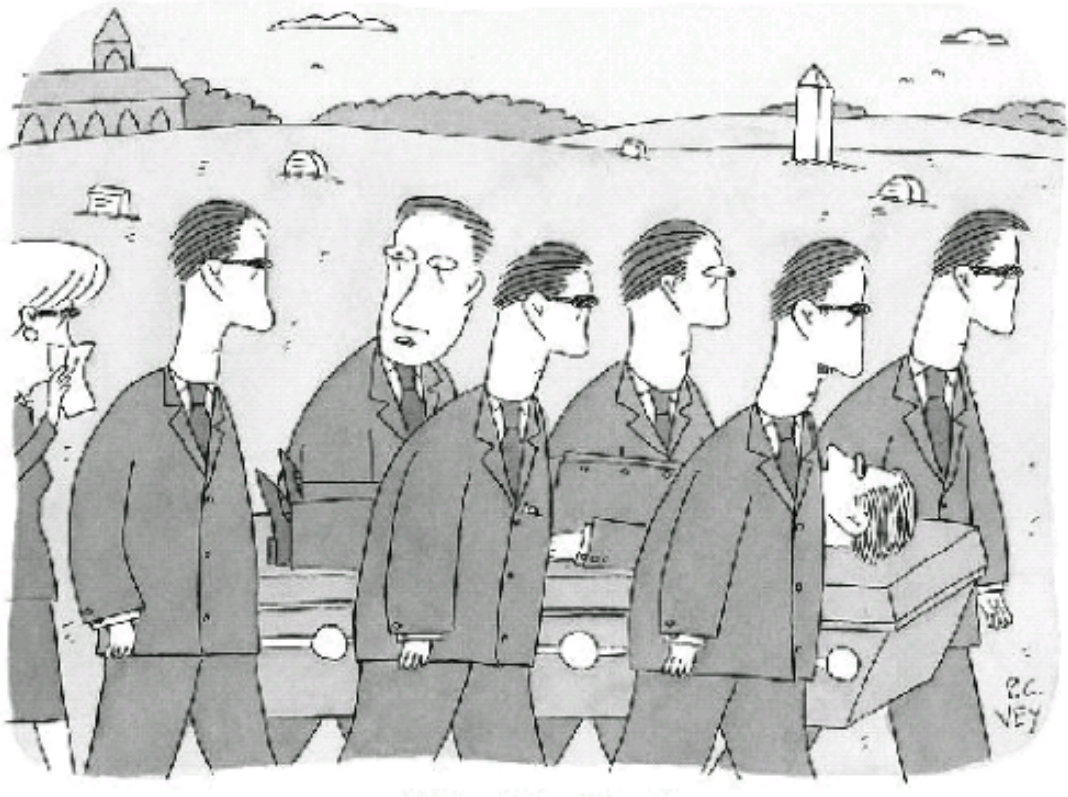

"He loved the outdoors."

الفصل الأول

لا أعرف لماذا أنا ذاهب لجنازة "أوليباريس".. فهو ليس صديقي، ولا أعرف عائلته.. أخبرني الرَّفيق "فيرناندیس" أن الجنازة غدًا.

قال:

- ربما نلتقي هناك.

كان الرَّفيق "فيرناندیس" نقطة ضعفي.. لم أَرَهُ لسنوات، وكان معظم ما سمعته عنه يفتقر للمصداقية.. فمثلًا، سمعتُ أنه يأكل الزجاج عندما يكون ثَمِلًا. سمعت كذلك أنه امتطى فيلًا. ففي إحدى المرَّات، أحضر فيلًا ليتمكَّن مُرشَّح سياسي من ركوبه للمدينة.. أراد المُرشَّح أن يُعرِّف الجميع أن الزمن قد تغيرَّ، وأنه يمثِّل هذا التغيير! حصل على الفيل من سيرك يُخيِّم عند طرف البلدة. اعتقد الرَّفيق أن ركوب المُرشَّح فيلًا للبلدة سيكون طريقة رائعة لإيصال رسالته.

حصل ذلك الاستعراض على نجاح باهر، ولأن طبَّاخ السُّم يجب أن يذوقه أولًا، اضطر الرَّفيق أن يمتطي الفيل قبله.

كان جميع أصدقاء "أوليباريس" موجودين في الجنازة. لا أعرف ما إذا كانت كلمة "صداقة" هي الوصف الأمثل لما يجمع هؤلاء الناس معًا. كانوا زملاء دراسة أولًا، قبل أن يصبحوا رفاق "أوليباريس" المقرَّبين في قسم العلوم السياسية، بالجامعة القومية القديمة.

على الرغم من أنني أغلقتُ عينيَّ، كان لا يزال بوسعي أن أرى المدرسة الصغيرة القديمة، بحديقتها الصغيرة، والكافيتيريا المليئة بالفتيات الجميلات اللاتي اشتهاهن أولًا وهو تلميذ، ثم وهو بروفيسور، وأخيراً، وهو رئيس قسم.

وصل أفضل وأذكى رجل من جيل "أوليباريس" إلى الجنازة، وهو عميد سابق

بالجامعة، ومُصارع سابق، ورئيس شرطة سابق. ووصل أيضًا "إلباتو بيرتِس"، والذي لم يعد كما كان سابقًا.

في البداية، كان "أوليباريس" تلميذ "إلباتو"، ثم سكرتيره، وأخيراً حارسه عندما بدأت علامات التقدُّم في السِّن تظهر على أسنان "إلباتو" لتُكسبها صفاراً يفسد شكل أنفه. كما تضاعف حجم كرشه.

رأيتُ "إلباتو" عند مؤخرة صالة الجنازات عندما وصلت، وهو كذلك رآني.. خوفًا من أن يتم تجاهله، لوَّح بيده مُحيِّيًا الغرفة الممتلئة رؤوسًا صلعاء، وشعوراً رمادية.. يعرف أنني لا يمكنني تجاهل تاريخنا معًا، فهو تاريخ مؤلم!

كُنتُ فاقدَ الوعي من كثرة الشراب، مستلقيًا على أريكة بمنزل "ليليانا مونتويا"، التي أكثرت من الشرب كذلك.. كُنتُ في الرابعة والعشرين، وهي في الثانية والعشرين.

أخبرتني "ليليانا" أن أختها الصغرى قد تم إذلالها، وأن "ليليانا" قد تخلَّصت من الحقير الذي فعل هذا بقتله. رتَّبت القيام بهذا عن طريق العجوز القذر الذي اتخذته عشيقًا لها منذ بضعة أشهر، والذي يعمل دكتوراً في علم الإجرام، ويُدعى "روبرتو جوميث" ويدعونه أحياناً بـ"بيرتِس" – و"بيرتِس" تعني ذكر البطة – لكنه مشهور باسم "إلباتو"، وهو الرجل الذي كان يشير نحوي من الجهة الأخرى للغرفة!

أخبرتني "ليليانا" عن جريمتها في نهاية حفل عائلي استمر للفجر. كانت لا تزال تقيم في منزل والدتها، ولم تكن قد انتقلت لتقيم مع "إلباتو" بعد.. أكثرت من الشراب لدرجة أنها أسرعت نحو دورة المياه لتتقيأ، بعدها راحت في النوم على حجري.

وعلى الرغم من أنني أرجعت خطتها الخطيرة لتأثير الكحول عليها، فإنني على أي حال، سجَّلتها في نوتة صغيرة في اليوم التالي. مرَّت سنوات وأنا لا أعرف ما إذا كان ما أخبرتني به "ليليانا" على الأريكة حقيقي أم لا، أم هو نتاج حالة السُّكر

التي كُنتُ فيها، أو نتيجة لسُكرها هي، لكنني أميل للاعتقاد أنه حقيقة، فهي خطة بوسع "ليليانا" إعدادها.

كُنتُ مقتنعًا أنه مشهد يحمل بذور رواية بداخله.. يجب أن أُعلن الآن أنني كاتب.. لا أتلاعب بالكلمات، ولا أغيرُّ المواضيع.. أتمسَّك بتحيزاتي، ولا أميل للاستطراد.

قراءة ما أكتبه ليست كافية، يجب أن أنتقده كذلك.

كان "إلباتو بيرتِس" يترأس المجموعة المكونة من أعضاء الكلية الذين يمتثلون لكل ما أرادت الحكومة تنفيذه في الجامعة بعد عام 1968 ، وهم مجموعة من المُتملِّقين الذين تحتقرهم بقية الجامعة.

يدعونه "إلباتو بيرتِس" لأنه يتهادى كالبطة، لكن هذه هي الصفة الوحيدة التي يُشبه فيها البط.. غير هذا، فهو يبدو أقرب لأن يكون قطًّا أو تمساحًا. تعرَّف إلى "ليليانا" وهو في الأربعين. كان جلده الجاف وشعره الخفيف يوشيان بالهيئة التي سيبدو عليها عندما يبلغ الستين.. كان ذا بشرة داكنة، وشفتين لونهما أدكن، وأسنان بارزة تعطي وجهه هيئة تشبه منقار البط.

اعتاد تدخين سجائر بنكهة الفانيليا، ذات أغلفة سوداء وفلاتر ذهبية، والذهاب إلى كلية الحقوق بصفة مستمرة ليراقب الحال وكأنه إله خفي.

رسميًّا، كان يقوم بتدريس علم الإجرام، لكن فعليًّا، فهو من يدير المكان بأكمله.

اعتاد فضَّ مشاجرات الطلاب، وحماية العصابات. كان الساحر الذي يتأكد من أن مجموعات الطلاب تقوم بانتخاب الزعماء المناسبين. عرف كل شيء يمكن معرفته عن الطلاب الواعدين، وحتى أسرارهم المشينة وأسرار آبائهم كان يعرفها.

استشعر انعدام الضمير المُختبئ داخل الشباب الفاسقين، وتعرَّف على ومضات الطموح والفساد المُختبئين داخل الطالبات الجديدات، وهو ما حدده اعتماداً

على طول تنوُّراتهن. كان بوسعه أن يصبح كاتبًا كامل المعرفة، لكنه أكثر فسادًا من أن يصبح كذلك.. ففي أعماقه، كان مجرد مُتملِّق وشُرطي!

كان يُلازم "ليليانا مونتويا" بمجرد أن يراها.. لديها ساقان طويلتان، وعينان لامعتان.. "ليليانا" هي أخت صديقي "روبين مونتويا" الصُّغرى.

أمهما كانت أرملة لديها أربعة عشر طفلًا: ستة أولاد، وثماني بنات.. كانت الأم تفتقد سِنَّتين أماميتين، وأثناء تناولها الطعام كانت تُخرج لسانها لتمرره فوق الفجوة، حيث السنتان المفقودتان.

نجحتُ في أسر عينيها، وبقدر استطاعتي، أسرتُ قلبها كذلك.

عندما عرفت بمقتل ابنها، قامت بتبنِّي سجين يسكن على مقربة منها، واتخذته ابنًا بديلًا.

في اليوم الذي رأتني فيه أم "روبين"، نادتني باسم ابنها الفقيد "ريكاردو"، والذي كان توأم "ليليانا".. مات "ريكاردو" عندما انقلب به باص يُقلُّ مجموعة من الحجاج الذاهبين لزيارة ضريح عذراء "تشالما".

لم يكن ذلك هو الباص الذي من المفترض أن يستقلَّه "ريكاردو" ليذهب إلى "مكسيكو سيتي"، فهو ليس حاجًّا.. ترجَّل من الباص في المحطة الموجودة في "موريليا" بسبب نزوة راودته لرؤية الضريح.

كان كل ما يرغب فيه هو أن يقابل الحجاج ويرى الضريح، لكنه عوضًا عن هذا قابل الموت!

أصبحتُ صديقًا لعائلة "ليليانا" بفضل أخيها "روبين"، والذي كان زميلي بالجامعة.

عندما أمُرُّ من خلال باب منزل آل "مونتويا" بسقفه العالي، وحجراته القديمة، والموجود بالقرب من محطة قطار "بوينافيستا"، تقول أم "ليليانا" دومًا: "أنت مثل "ريكاردو" تمامًا"، ثم ترسم علامة الصليب على جبهتي، وفمي، وصدري،

قبل أن تحدق في عينيَّ كما لو كانت تبحث عن سر هي وحدها من تستطيع رؤيته!

وبينما تباركني أم "روبين" ببركاتها الثلاثية، تتجه عيناي ناحية الضوء الذي يشع في الجهة الأخرى من غرفة الطعام. كان فصل الربيع قد حلَّ بالمدينة، وكانت أشعَّة الشمس مُسلَّطة على فتاة تقف حافية القدمين، والتي جعلت أشعَّة الشمس أنسجة ثوبها الرفيعة تبدو وكأنها شفَّافة، مظهرة جسدها تحته.

رمت الأشعَّة آثارها على انحناءات قدميها، وساقيها الطويلتين، وفخذيها المُمتلئتين، كان لديها خصر صغير كخصر الأطفال، وذراعان طويلتان ملفوفتان مثل ساقيها، وكان هناك لمعان أنثوي شقي في عينيها.. كانت "ليليانا" مستمتعة لرؤية والدتها تُقبِّلني.. بدت أسنانها بيضاء، وعظام وجنتيها بارزة كالقطط، بينما كاد شعرها الأسود في الضوء الساطع يبدو وكأنه أزرق اللون.

ظلَّت تنظر إليَّ بينما تُقبِّلني أمها.. هي تعرف بالفعل كل شيء عنِّي.. كل شيء!

وكإثبات على تبنيها إياي، أعطتني السيدة "مونتويا" مفتاح الباب الأمامي. قابلتُ أنا و"ليليانا" ثقتها هذه بانتهاكها!

ذات ظهيرة دخلتُ المنزل بمطبخه الضخم وأروقته الطويلة، لأجد "ليليانا" تغسل ثيابها الداخليه في الحوض.

كنا وقتها في خميس الأسبوع المقدس. ذهبت والدتها إلى "موريليا" مع بقية العائلة، وقررت "ليليانا" عدم الذهاب والبقاء بمفردها في المنزل، قالت:

- ليس لديَّ ثياب داخلية نظيفة، انظر!

رفعت تنوُّرتها لتريني.. كان لون فخذيها وبطنها بُنِّيًّا، بينما شعر عانَتِها داكنَ السَّواد، ويميل للأزرق. لن أنسى أبدًا ذلك الجسد، ولا ذلك الشعر. ولا هما سينسيانني!

يجب أن أحافظ على تلك التفاصيل في عقلي، فلن أسمح لنفسي بنسيان تلك

اللحظة!

جلست "ليليانا" على طرف رخامة الحوض، وفتحت ساقيها لي.. كان جسدها رطبًا بشكل لا يُوصف، وكانت رائحتها زكية، كرائحة خشب المدفأة المقطوع حديثًا، ورائحة المنظف الذي تغسل به ثيابها الداخلية، إضافة إلى رائحة أخرى حلوة وجذابة.

أصدرت أثناء ممارستنا الحب صوتًا يشبه ببغاء. أخذت تقول إنها ستفضحني، وستحكي لوالدتها عمًّا فعلته بها، وعن سائلي الذي أقذفه داخلها بوفرة.

أمست كلماتها تلك الأمسية شفرة بيننا.

"سأحكي لوالدتي عنك".. من الآن فصاعدًا ستكرر تلك الكلمات كأنها دعوة.

لو قالتها بينما نحن بمفردنا، فهذا معناه أنني يمكنني رفع تنوُّرتها، وأن أُعاشرها على الفور لأنها في كامل الاستعداد.. أما لو قالتها أمام أقاربها أو أمها بعد العشاء، أو بعد تحية المساء، فهذا يعني أنني يجب أن أتظاهر بأنني ذاهب للحمام، حيث ستكون هي جالسة على طرف رخامة الحوض، أو مُنحنية مقابل الجدار، رافعة تنوُّرتها.

أعادت تلويحة "إلباتو" كل تلك الذكريات لعقلي.. لم أقترب منه لأسلِّم عليه، وتظاهرت بأنني لا أستطيع الوصول لمؤخرة الغرفة لأنني في خضم محادثات مع آخرين، لكن "إلباتو" الخبيث تمكَّن من التسلل عبر الحشد كالأفعى، وشعرت بترددات صوته وهي ترتد عن ظهري مثل زخَّات من مياه الشلال:

- كيف حالك يا صديقي القديم؟

عندما التفتُّ له، كانت يده الضخمة المرتعشة ممدودة تجاهي.

- كيف حالك؟

أعاد سؤاله.

أجبته أنني بخير، وسألته عن حاله هو.

- أعيش وأتعلم يا صديقي.. من كان يظن أنك أنت من سيصبح الكاتب بيننا؟

كان يلهث أثناء حديثه بسبب الربو، أو مرض انتفاخ الرئة.

كان أحد جفنيه مُسترخيًا أكثر من الآخر، وبداخل عينيه نصف المفتوحة تمكنتُ من رؤية نظرته الثابتة والخالية من الحياة.. رموشه الطويلة هي علامة الحياة الوحيدة في وجهه.

- يجب أن نتحدث.. لقد نسيتنا.

تساءلت عمَّن يقصد بالجمع في كلمة "نسيتنا" لأنني لم أرَهُ هو أو أي شخص مقرب منه منذ فترة. أعتقد أنه استخدم الجمع لكي يعد مسرح الأحداث لما سيصفه فيما بعد "بلقاء لم الشمل" .

اتخذ الرَّفيق "فيرناندیس" طريقه بين المُعزِّين، آتيًا لإنقاذي، قائلًا:

- صديقنا العميد يريد أن يُسلِّم عليك.

كان "إلباتو بيرتِس" يقف بجانبي، فسارع بالتوضيح:

- العميد السابق!

كانت مُزحة ماهرة وسريعة، لكن سرعان ما صدَّها الرَّفيق "فيرناندیس" بحسِّه الدُّعابي الذي لا يُضاهى:

- نحن ممتنون للطريقة التي كان يقوم بها "العميد السابق" بعمله، فهو من علَّمنا كيف نزيد من أرصدتنا البنكية.

أخرست ضحكة "إلباتو" العالية الهمهمة التي سادت بالغرفة. كانت ضحكاته تكذب سنوات عمره الكثيرة، كما لو كان كبر السن مجرد تنكُّر يُخفي تحته رُوحه المرحة والمتوحشة!

الفصل الثاني

عندما عُدتُ للبيت بعد جنازة "أوليباريس"، بحثتُ في أوراقي عن أي شيء يمكنني الوصول إليه بخصوص "ليليانا مونتانا". كانت مفكراتي القديمة مليئة بكثير من الأشياء عن علاقتنا العاطفية التي نسيتها.

بدأت غرامياتي المُحرَّمة مع "ليليانا" كما سبق أن ذكرت، في أحد أيام الخميس من شهر أبريل عام 1972 ، على رخامة حوض المطبخ بمنزلها.. وقبل هذا المشهد بوقت قصير، في فبراير، بلغت "ليليانا" الثامنة عشرة، بينما بلغتُ أنا العشرين في يناير.

بعدها بعامين - في عام 1974 - التحقت "ليليانا" بكلية العلوم السياسية، بينما كُنتُ أنا في عامي الثالث بكلية الآداب والفلسفة.

أتى عام 1976، لتصبح "ليليانا" في عامها الثاني بكلية العلوم السياسية، وقد صاحبت "إلباتو بيرتِس" الذي يكبرها بعشرين عامًا. أخذها لعشاء على ضوء الشموع وأصوات عزف الكمان في مطعم معروف بجاذبيته وأسعاره المبالغ فيهما.

قبل ذلك، لم تواعد غيري أو واعدت فتيان في عمرها.

أزعجتني علاقاتها الجنسية الكثيرة، لكن غيرتي لم تواكب شهوتي.. كانت تقول دومًا إنها تريد ترك المنزل لتنتقل للمعيشة معي، لكنني لم أكن أملك لا المال ولا المكان لها.. بالإضافة لهذا، فأنا أحب الكتابة، و"ليليانا" ليست من النوع الذي يصلح زوجة لكاتب؛ فصوتها حاد عندما تتحدث، وغناؤها لا يمكن نسيانه، أما ضحكتها فكانت عالية وسوقية، والأسوأ، أنها تضحك على كل شيء، خصوصًا أنا.. لا يهم المكان؛ وسط الناس، في المترو، لا يهم. كما أن ثرثرتها التي تذكرني بنقيق الدجاج كانت تجعل الناس يحولون أنظارهم عنها، دون أن يستطيعوا منع أنفسهم من مراقبتها بطرف أعينهم.. صحيح هي جميلة للغاية، لكن ضحكتها كريهة!

التفتُّ لأخت "ليليانا" الأصغر: "دوروتيا". أول ما تذكرته عنها كان وهي فتاة صغيرة في زي مدرسة بنفسجي، وجوارب واسعة جدًّا.. كان جسد المرأة بداخلها قد بدأ يتشكَّل ليستبدل جسد الفتاة الصغيرة التي كانت عليه. طويلة هي، وذات قوام ممشوق، وبشرة ناعمة بُنِّية كالمكسَّرات، كتلك البشرة التي حاول رسَّامون - من أمثال "روميرو دي توريس" - تكرارها في النساء ذوات البشرة الداكنة الموجودات بلوحاتهم.

على الرغم من تألُّقها وتركيزها، فإن تعبير وجه "دوروتيا" لا يستطيع تخبئة الشعور بالملل الذي بداخلها.

ارتسمت على شفتيها ضحكة ساخرة، كأنما تجهز نفسها لسُخرية الآخرين.

من الصعب تخيُّل تلك الفتاة بين مخالب شخص يستغلها.. في إحدى الليالي أتت لـ"ليليانا" وعروق معصمها تنزف قليلًا، قائلة إنها قد أُهينت!

كانت "دوروتيا" وقتها في الثامنة عشرة من عمرها، وهو السن نفسه الذي كانت "ليليانا" فيه عندما عاشرتُها أول مرَّة.. كان صديق "دوروتيا" الحميم يكبرها بعشرين عامًا، الفارق العمري نفسه بين "ليليانا" و"إلباتو بيرتِس" عندما بدأ يُواعدها.

استمعت "ليليانا" بانتباه بينما "دوروتيا" تحكي كيف أهانها صديقها، قبل أن تطلق الشقيقتان عليه لقب "ألكاتراتشو"، وهي سُبَّة تُطلق على الهندوراس.

كانت "دوروتيا" تشعر بالخجل من الأشياء التي أجبرها "ألكاتراتشو" على فعلها.. أجبرها على ابتلاع أقراص واستنشاق أشياء تُضعف إرادتها، وكان يجعلها أحيانًا ترتدي ملابس سيدة عجوز، أو طفلة صغيرة.. راهبة.. العذراء. بكت "دوروتيا" طيلة الوقت وهي تحكي كل الإساءات التي أوقعها بها، وأسوأ شيء في رأي "ليليانا"، أنه لم يكن حتى مكسيكيًّا!

لم تقدر على تحديد سبب معين، لكن كونه أجنبيًّا كان كافيًا لجعله أكثر شرًّا في عينيها.. في اليوم التالي طلبت من "إلباتو بيرتِس" أن يتخلَّص من "ألكاتراتشو"، ليضحك "إلباتو" عليها قبل أن يخبرها بأنها مجنونة.. عرض عليها أن يتم ضرب الرجل وترحيله، لكن "ليليانا" نظرت لـ"إلباتو" كما لو كان لم يفهم قصدها، وأعادت ما قالته.

لم يستطع "إلباتو" بالبداية أن يصدق أنها جادَّة، فقد أخافته كلماتها.. لم يعرف ما يجب قوله.. مرَّت الأيام، ولم تتوقف "ليليانا" عن سؤاله.

- متى سيتم قتل " ألكاتراتشو"؟

لم يشعر "إلباتو" بأنه مُلزم بالقيام بما تريده، وهنا قرَّرت "ليليانا" أن ترفض

النوم مع "إلباتو" طالما "ألكاتراتشو" لا يزال حيًّا.. تطلَّب الأمر من "إلباتو" شهراً ونصف الشهر ليتعلَّم درسه، فلم يكن بوسعه فعل شيء إزاء رفض "ليليانا" له.. كان مُنجذبًا لها مثلي، بل وبطريقة غير طبيعية. وعلى عكسي، اعتقد "إلباتو" أنه سيد قدره، أما أنا فمؤمن بأنني كما أنا ولا أوهم نفسي بامتلاكي أية صفات إضافية.

طلب "إلباتو" من "ليليانا" أن تعود، وفي اليوم التالي توسَّل إليها، وفي إحدى الليالي اعترف لنفسه بأنه صار بائسًا دونها. أدمن وجود "ليليانا" مثلي تمامًا. وفجأة، وبينما جلست لتناول العشاء مع عائلتها في مقاطعة "سان رافاييل"، اتصل ليقول: "تمت المهمة!".

فيما بعد، عرض عليها صورًا فوتوغرافية لرجل بثقب رصاصة في رأسه. كانت إحدى عينيه نصف مفتوحة، ومن حوله بركة من الدماء. عندما رأت "دوروتيا" الصور، انفجرت بالبكاء.. كان "ألكاتراتشو"!

كما قلت، سمعت قصته من "ليليانا" بعد ليلة صاخبة ومليئة بشرب الخمر جعلتني أستيقظ في اليوم التالي وأنا أشعر بالدُّوار والذُّعر.

هلعتُ مما سمعتُ، وارتعبتُ من المرأة التي سمعتُ منها الموضوع، وقرَّرتُ الابتعاد عن "ليليانا" والتوقف عن رؤيتها. لم أدرك أن هذه الأشياء ليست بيدي. لم أقترب منها خلال عطلة الكريسماس تلك السنة، ولم أرد على اتصالاتها. أنهيت كُلِّيتي بالفعل، ولم يعد هناك حاجة لكي يتقاطع طريقي معها، لكن "ليليانا" ظهرت في عيد ميلادي بشهر يناير على أي حال. كالعادة وصل الاحتفال إلى ذروته بعد دورة من المشروبات التي مرَّت بجميع الموجودين.

استيقظتُ في فندق حقير يمتلئ بالبراغيث و"ليليانا" ترقد بجانبي، ولم تكن لديَّ أدنى ذكرى بخصوص اليوم السابق، على الرغم من أنني كُنتُ لا أزال أتذكَّر اليوم الذي يسبقه.

أتذكَّر على وجه الخصوص النقطة المُرعبة التي أضافتها "ليليانا" عندما أخبرتني

بخصوص قتل "ألكاتراتشو" لثاني مرَّة.

قالت إنها ذهبت مع "دوروتيا" لرؤية الجسد، وإن"دوروتيا" ركلته بقدمها لتتأكد من أنه مات.

ثار رعبي لمرَّة ثانية، وأسرعتُ لأبتعد عن "ليليانا" التي أتت باحثة عنِّي، لكنني أبيتُ أن يتم العثور عليَّ. أخيراً، كتبتُ لها خطابًا أطلب فيه منها هُدنة.. "ألا يمكننا أن نتوقف عن رؤية بعضنا بعضًا لعدة شهور؟ أحتاج لأن أُصفِّي ذهني. سأذهب في رحلة، فربما أتمكن من تأليف كتاب". أجابت "ليليانا" خطابي بخطاب آخر تقول فيه: "هذه ليست حربًا أيها الغبي".

لكنها كانت حربًا، أو على الأقل بدأت تتحوَّل إلى حربٍ.

في اليوم الذي اتصلت فيه "ليليانا" لتقول إنها ذاهبة في عُطلة مع "إلباتو بيرتِس" لأول مرَّة، أضافت:

- لو طلبت منِّي، سأذهب معك أنت.

لم أكن أملك مالًا كافيًا، ولم أكن أرغب في اصطحابها لأي مكان.

كلما فكَّرت في الأماكن التي كانت ستصطحبني لها، شعرتُ بالدُّوار، فهذه هي الأماكن التي أحببتُ الذهاب إليها.

كل ما يتعلق بـ"ليليانا" هو قصة حياتي.

عندما أنهت الكلية، أهداها "إلباتو" شقة هدية للتخرج.. لم ترفض "ليليانا" هديته، لكنها أرسلت لي رسالة قبل أن تنتقل، تخبرني فيها بما اعتزمته:"لو طلبت منِّي، سأنتقل للإقامة معك أنت".

لم أطلب منها شيئًا، لكنني اتصلت بها لأخبرها ألا تنتقل للإقامة مع"إلباتو".. أجابتني:

- ماذا تعرض عليَّ؟

قلت لها إنني لا أملك شيئًا، لكن لا يجدر بها أن تنتقل للإقامة مع "إلباتو" .

- القطار يأتي مرةً واحدة في العمر يا "سيرانيتو".

"سيرانيتو" هو اسم عائلتي، وكانت أول مرة تدعوني فيها به، واستخدامها له هو تدليل وتقليل من قيمتي كرجل، وقد أوصل لي رسالتها كاملة: "أنا أخاف من المرأة التي أحب، وهذا يقلل من رجولتي في نظرها، وفي نظري كذلك!".

في العام التالي، أثناء محاولتي لإلهاء نفسي عن "ليليانا"، تزوجت من "أوريليا أبورتو"، التي كانت زميلة عمل في الجريدة التي التحقت للعمل بها.. كانت جريدة يسارية تم فصلي منها فيما بعد، بعد أن اكتسبت ألدَّ الأعداء، وأولهم "أوريليا" نفسها!

في أحد أيام الجمعة من شهر سبتمبر 1989، وبينما كُنتُ أُدوِّن في دفتري، رأيتُ "ليليانا" تقوم بدور شريكة "إلباتو بيرتِس" للمرة الأولى.

حدث هذا في مطعم يعمل طيلة الليل في شارع "تلاكوكويميكتال"، الذي لا يبعد كثيراً عن منزلي في مقاطعة "فالي دي ثيوداد مكسيكو" بمدينة "مكسيكو سيتي".. مطعم "تلاكوكويميكتال" يقدم الحساء الحار والضلوع المتبلة بصوص الباربكيو، وقد اعتدتُ الذهاب هناك لتناول إفطاري مبكراً. في المعتاد، أطلب العجَّة مع الهوت دوج، مع خبز التورتييا المُدفأ على المشواة، إضافة لبعض القهوة بالقرفة في فنجان خزفي.

أتناول إفطاري مبكراً قبل الشروع في الكتابة، والتي أندمج فيها من الثامنة صباحًا حتى الثالثة عصرًا، وهنا تبدأ رورديتي بالجريدة.. أتى "إلباتو" مع "ليليانا" للمطعم فجراً بعد ليلة قضياها في الشراب.. رأيتها تضحك وتغني بجانبه، ثم ترمي بنفسها بين ذراعيه، تُدلِّك رقبته، تُقبِّل رقبته، ثم تعطيه بعض الشراب من زجاجة "الروم" التي أخذتها من جيبه. لا يرياني لأنني تسللت نحو المطبخ بمجرد وصولهما.

ومن مخبئي بالمطبخ الذي يفوح برائحة الطعام المقلي وبخار الحساء، شاهدتُ

"ليليانا" و"إلباتو" في صحبة طباخ يدعى "كول".

في نهاية تلك السنة، انفصلتُ عن "أوريليا أبورتو" ورفعتُ الستار معلنًا عودتي لأكون ذئبًا وحيدًا.

الآن وصلت لمطعم "تلاكوكويميكتال" مع الفتاة التي قضيتُ الليلة بأكملها أرقص معها وأحتسي الشراب.

وعلى الرغم من إصراري على البقاء بعيدًا عنها، فإنني ظللت أتلقى أخبارها. حكايات عن ممارساتها الجنسية، حكايات عن شربها للكحول، وحكايات عن النقود التي تنفقها تحت حماية "إلباتو". كان الرَّفيق "فيرناندیس" يبقيني على اطِّلاع دائم. في رأيي، فإن "إلباتو" قد أفسد "ليليانا" كما قام "ألكاتراتشو" بإفساد أختها "دوروتيا"، لكن الفارق هو أنه لم يقم أحدهم باستئجار من يقتل "إلباتو" كما فعلت "ليليانا" مع "ألكاتراتشو".. اعتنت "ليليانا" بأختها "دوروتيا" بشكل لم أفعله أنا مع "ليليانا".

أخبرني الرَّفيق "فيرناندیس" في أحد الأيام أن "إلباتو" قد دخل مصحتين لقضاء بعض الوقت للتعافي من إدمان الكحول، وقد سعدتُ لسماع هذا الخبر.

عرفتُ بعد ذلك بسنة من إعلان قرأته في الصفحات الأخيرة بجريدة ما أن "ليليانا" أصبحت مغنية في أحد البارات.. قمتُ بالذهاب سرًا لمشاهدتها في توقيت آخر عرض لها بالليل، ومن موقعي على منضدة مظلمة في مؤخرة البار، راقبتها وهي تثير حماسة الجميع بغنائها على المسرح.. التمع طلاء شفتيها تحت الضوء الوحيد الموجَّه نحوها، بينما ثوبها الأبيض الضيق يظهر قمَّة نهديها الصغيرين.

امتلأت عيناي بالدموع بينما هي تغني.

بكيتُ، دفعتُ حسابي، ثم رحلتُ قبل نهاية أغنيتها.. في هذا الوقت تقريبًا قامت الجريدة بطردي، وتزوجت من زوجتي الثانية، وهي امرأة سأدعوها "جوزيبا".. نشرت رواية تحكي قصتي خلال الفترة التي قضيتها بالجريدة، وقد شعر زملائي

القُدامى بالإهانة للطريقة التي صورتهم بها.

وصفوني بالصحفي الفاشل، والخائن لوظيفة لا أملك الحق في تشويهها. حقق الكتاب نجاحًا معقولًا، وقد عرضت علي دار النشر التي عملت بها بعد تركي للجريدة – والتي تعمل بها "جوزيبا" كذلك – وظيفة بمكتبهم الرئيسي في برشلونة، حيث انتهى بي الأمر لقضاء ست سنوات هناك!

قامت "جوزيبا" بشراء شقة، ومرَّت بتجربة إجهاض.

كتبت ونشرت روايتين، وتبادلت بعض الخطابات مع الرَّفيق "فيرناندیس"، ومن خلاله عرفت ما لديَّ من معلومات قليلة عن "ليليانا" في تلك السنوات، فعرفت علاقاتها المتعددة، وشربها الكثير للخمر، وتعدُّد غرامياتها.

عرفتُ أنها فتحت بارًا مع صديق ثري، ثم محل هدايا مع آخر.. هجرت "إلباتو" متعثر الحال، فقد خسر "ليليانا" وعاد لزوجته الأولى. سياسيًّا ومهنيًّا، كان يعتمد على "أوليبارس".. صار مجرد كائن بائس مقارنة لما كان عليه من قبل، شعرتُ بأنه بشكل ما، قد أصبح مثلي.

تركتني "جوزيبا" بعدما فشلت محاولتنا للتصالح أثناء قضاء عُطلة في "ميليللا". رجعت من إسبانيا بعد الطلاق، وقد صرتُ في السادسة والثلاثين من عمري، بينما أصبحت "ليليانا" في الرابعة والثلاثين، في حين أتم "إلباتو" عامه الرابع والخمسين. رأيت "ليليانا" بالصدفة ذات عصر في أحد المطاعم التي لم تعد موجودة الآن بطرف "مكسيكو سيتي" الجنوبي.

كان مكانًا غريب الأطوار اسمه "لوس كوميرثياليس"، حيث يضع النُدل قُبَّعات كقُبَّعات المُهرِّجين على رؤوس الزبائن، بينما يعزفون ألحانًا مرحة من أغاني أعياد الميلاد، ثم يقدمون كعكات عليها شموع، ويغرقونهم بالتهاني.. كما أن طعامهم جيد. في إحدى المرات، جلست "ليليانا" إلى طاولتها المعتادة، وتبادلت حوارًا حادًّا مع رجل ذي شعر أسود مصبوغ. كان يرتدي جاكت ذا منديل تركوازي يتماشى مع رابطة عنقه. تركته "ليليانا" وشقَّت طريقها عبر الغرفة لتأتي وتحييني.

دفعتني في صدري وذراعي بكلتا يديها كأنما تدعوني للعراك.

قالت:

- أنت نحيف للغاية.

قبل أن تكمل:

- لماذا أنت نحيف هكذا؟

كانت أنفاسها حلوة: رائحة طلاء شفتيها البرتقالي، مع نفحة من رائحة "التيكيلا" التي كانت تشربها، أو شربتها بالفعل.

- يجب أن نتقابل يا أحمق.

أعطتني رقم تليفونها ودوَّنت رقمي.

بعدها جلست – متعمدة - إلى مائدتها في مكان يمكنني من خلاله النظر إليها دون أن تحتاج هي للنظر إليَّ.. هذا هو ما أرادته، وهذا هو ما فعلتُه.

ثوبها الأخضر الضيق ترك ذراعيها عاريتين، وأبرز خصرها النحيل وفخذيها الملفوفتين. كانت تعرف أنني أنظر إليها.. هي تعرف جيدًا تأثير ساقيها الطويلتين عندما تسير. مرَّت بيدها اليسرى خلال شعرها، لترفعه عن كتفيها مُظهرةً رقبتها، قبل أن تتركه يسقط على ظهرها بلا مبالاة مغنية محترفة.

الفصل الثالث

في ذلك الوقت، كُنتُ أعمل على كتاب عن مذبحة "ويتزيلاك"، وكُنتُ قد حصلتُ على منحة "جوجنهايم" للكتابة عن تلك المذبحة التي حدثت في الثالث من أكتوبر، عام 1927.. تم إطلاق النار على الجنود والمدنيين الذين تم اتهامهم بالتآمر ضد الحكومة.. قُتلوا بدمٍ بارد وبلا محاكمة!

قرَّرتُ - احترامًا لخرافة مقدسة من قبل الصحفيين والكُتَّاب - زيارة المكان الذي

سأقوم بالكتابة عنه. استعددت لرحلتي بساعات كثيرة من قراءة الكتب والسجلات. فعلت ما بوسعي لتكون رحلة "ويتزيلاك" جديرة بالاهتمام. لم تكن مهمة صعبة أو معقدة لأن "ويتزيلاك" تبعد بضعة كيلو مترات عن "مكسيكو سيتي".. الجزء الصعب سيكون العثور على دليلٍ ما في موقع المذبحة، والذي صار الآن مدفوناً أسفل الزحف العمراني.

لم تكن هناك علامة تدل على المكان الذي تم إجبار المُدانين على الزحف على الأرض فيه واحدًا خلف الآخر، قبل أن يتم إعدامهم، لكنني انتويت زيارة المكان على أي حال.

اتصلت "ليليانا" بي الليلة السابقة للرحلة، قائلة:

- أعرف أنك لن تتصل بي لأنك تحاول دومًا الهروب منِّي، لهذا اتصلت أنا بك!

سألتها:

- كيف عرفتِ أنني لن أتصل بكِ؟

أجابتني:

- لأنك بدوت كالقسيس وأنت تتسلل من ذلك المطعم.

سألتها:

- ما الذي جعلني أبدو كذلك؟

- كانت الشهوة واضحة عليك، والرعب يا "سيرانيتو"، كأنك قسيس فوجئ بأن لديه انتصاباً.. متى سأراك؟

سألتها عمَّا إذا كانت ترغب في الذهاب إلى "ويتزيلاك" في الصباح. زمجرت:

- "ويتزيلاك"؟ ماذا سنفعل هناك أيُّها الأحمق؟ لا يوجد شيء لفعله.

أخبرتها بأنني أقوم بدراسة عن مذبحة، وهو ما تسبب في زمجرة أخرى.

- فقط؟

هذه المرَّة ضحكت ملء شدقيها، وكالعادة جعلتني ضحكتها أنكمش.. توقفت عن الضحك، ووافقت على الذهاب.

- حسنًا.. ما دمت تريد "ويتزيلاك"، فلك ما طلبته.. متى ستأتي لتأخذني؟

- الثامنة صباحًا.

- حسنًا.

- ما عنوانك؟

- كل شيء تغير عدا عنواني.

بمجرد أن دقَّت الساعة الثامنة، كنت أُقلُّها من أمام البناية التي اشترى لها "إلباتو" فيها شقة، حيث استمرَّت في الإقامة بها لسنوات بعد تركها إياه. بدت كأنها لم تنم طيلة الليل وهي تستقلُّ السيارة، بينما فاحت منها رائحة الكحول، وظلت تثرثر كالببغاء. بدت عيناها المحمرتان منتفختين بطريقة جذابة. لم أذكر أو أدون شيئًا مما قالته.

يوجد كثير من الموتيلات على الطريق الذي يفصل بين "كويرنافاكا" و"ويتزيلاك"، وبعدما مررنا بثاني واحد، سألتني "ليليانا":

- أهذا هو المكان الذي سنبحث فيه عن آثار مذبحة "ويتزيلاك" يا "سيرانيتو"؟

التفت لثاني موتيل مررنا به. قالت وهي تشير نحو غرفة معينة:

- باستثناء غرفة واحدة بهذا الموتيل، يمكنني البقاء بأي غرفة.

مررت بالغرفة المحرمة، ودخلت المكان قاصدًا غرفة أخرى. فوق كل جراج كانت هناك غرفة بسرير مزدوج، وجاكوزي، وتليفزيون، وستائر وسجاد أرجوانيين.

داخل الغرفة حذرتني "ليليانا":

- لا تطلب مشروبات هنا، فهم يخففونها بالماء.. لا تثق إلا بالزجاجات المغلقة.

طلبت بالتليفون زجاجة شمبانيا، دون أن تحدد النوع، ودون انتظار وصولها، شرعت في إعداد الجاكوزي قائلة:

- سآخذ حمَّامًا وأستعد لك.

كانت الساعة التاسعة صباحًا. أخذت حمَّامًا استمر حتى وصول زجاجة الشمبانيا. كُنتُ قد طلبت إفطارًا لشخصين: عصير، وأومليت، وتوست، وإناء من القهوة.

خرجت "ليليانا" من الجاكوزي ملفوفة في مناشف الموتيل أرجوانية اللون.. وعلى الرغم من الإفطار الذي تم إحضاره إلينا، فإنها فتحت زجاجة الشمبانيا لتشرب منها مع الإفطار.. التهمنا الأومليت، واحتسينا الشمبانيا، التي كانت أول كحول أتناوله من سنين.. لم نفعل شيئًا غير الأكل، والشرب، والحديث، وكُنتُ مُمتنًّا لهذا. كل ما أردته هذا الصباح كان أن أتحدث معها، وأن أسألها كيف تتذكرني وماذا كُنتُ أعني بالنسبة لها.

أحتاج إلى سماع ذكريات الناس عنِّي لأنني كاتب لا يستطيع النظر لنفسه على حقيقتها.. ثقة "ليليانا" بنفسها تعمل بمثابة مرآة، كان ما قالته لي ذلك الصباح في الموتيل هو:

- لو كانت لديك الشجاعة يا أحمق، لربما أصبحت زوجتك.. لو كانت لديك الشجاعة لكُنتُ الآن أتعبَّد لك كما يتعبَّد العالم برُمَّته لذلك الإله غير الموجود والذي يبحث الناس عنه!

أكدت على كلمة "إله"، فقد كانت لديها طريقة معينة لتأكيد الكلمات في العموم.. تركنا الموتيل وقد امتلأنا بطعام الإفطار والشمبانيا.

ذهبنا إلى "ويتزيلاك" كما يحتاج مشروعي. استمعت، ونظرت، وأخذت ملاحظات بالأشياء التي يمكن أن أستعملها، ومن ضمنها الطريقة التي لخصت بها "ليليانا" عظمة تلك المذبحة:

- أولئك الناس تم العبث بهم مرارًا وتكرارًا!

عندما عدنا للمدينة مرَّةً أخرى كان الليل قد حلَّ، وقامت "ليليانا" بحركة أسعدتني؛ فقد دعتني لتناول الشراب معها.. عُدنا إلى المكان الذي أقللتُها منه بالصباح، وهو مبنى من عشرة طوابق ينتصب وحيدًا في وادٍ من البيوت القصيرة، ويطل على مجرى الماء "ريو ديلا بييدا".

كان بوسع المرء رؤية المبنى على بُعد، ومن داخله بوسعك الرؤية لمسافة بعيدة، لأنه عوضًا عن الجدران، كان المبنى يتكون بأكمله من الزجاج.. كانت شقة "ليليانا" - التي اشتراها لها "إلباتو بيرتِس" - في الدور السادس.. والآن بما أن "إلباتو" قد رحل، فقد انطلقت تريني الشقة.. بغرفة النوم كان هناك سرير دائري أحمر عليه لحاف فضي محشو بريش الطيور.

قالت "ليليانا":

- كان هذا هو عُشَّنا الحميم.

بغرفة المعيشة كان هناك بار فاخر بمرآة، وقد تراصَّت الزجاجات بجانب بعضها.. سكبت لنفسها بعض الفودكا دون أي إضافات، لم تلبث أن شربتها مرَّةً واحدةً.. سألتني:

- حسنًا.. ماذا تحب أن تشرب؟

أجبتها:

- المعتاد.

- "كوبا ليبر".

استعادت الاسم من ذكرياتها.. سألتني عن أحوالي، وعما أفعل الآن؟ وبينما كُنتُ بصدد إجابة سؤالها، شرعت في خلع ملابسها.. استمرت في نزع ملابسها بينما هي تخطو نحو النافذة الصغيرة بصالة شقتها.. التمعت أضواء المدينة عبر الزجاج.. في ذلك الوقت من الليل، وبينما الأضواء تعمل، كانت شقتها تلتمع

كأنها مكعب يشعُّ نوراً.

يجب أن ترى جسد "ليليانا" لتوقره كما يستحق.. من ينظر من الخلف سيكون بوسعه رؤية ظهر طويل، وخصر مستدير، وساقين وذراعين ملفوفة.. ومن الأمام، كان بوسعي رؤية نهدين صغيرين، ومعدة مسطحة، ولمحة من شعر عانتها شديد السواد.

ما زالت امرأة جميلة، وربما صارت الآن أجمل من تلك الفتاة ذات البشرة البنية والملامح الآسيوية التي كانت عليها في السابق. وقفت أمامي بذراعين مفتوحتين، وكانت مستمتعة باللذة والألم اللذين يُثيرهما فيَّ منظرها!

قالت:

- كما الماضي يا "سيرانيتو".. مثلما اعتدنا بالسابق.

لم أشعر بالإثارة.. حلَّت الساعة العاشرة وذهبت وهي لا تزال بالفراش الدائري.. لم تتوقف عن سكب الفودكا لنفسها، ولا عن سكب "كوبا ليبرا" لي.

بالكاد أكلنا شيئًا من الطعام في "ويتزيلاك"، وكنا شديدي الجوع.

- ما رأيك في تناول اللحم عند مطعم "بيبي" يا "سيرانيتو"؟ أتتذكَّره؟

أذكر "بيبي"، وهو مطعم لحوم أُغلق منذ زمن، وكان يقع في دائرة المرور عند تقاطع طريق "إنسورخنتس" مع "ميكسكواك".

قام نادل صغير السن يُدعى "ألفونسو" بتحيتي بأُلفة أثارت ريبة "ليليانا".

- مع من كُنتَ تأتي هنا يا "سيرانيتو"؟

تمكنت من تخمين علاقتي بـ"أوريليا أوبرتو"، التي اعتادت أن تصاحبني لهذا المطعم على الأقل مرَّة أسبوعيًّا بعد الخروج من العمل بالجريدة.

كُنتُ قد انفصلت عن "أوريليا أوبرتو" منذ وقت طويل، لكن يبدو أن الوقت ليس له تأثير على حاسة الشم القوية لدى "ليليانا".. احتسينا زجاجة من النبيذ مع

اللحم الذي طلبناه.. كانت الساعة قد أصبحت الثانية عشرة مساءً عندما رحلنا.

هبَّت نسمة من الهواء عصفت بشعر "ليليانا" فوق جبهتها.

- خذني للرقص.. أتذكر بار "بوكا"؟

لم أتذكَّر سوى مطعم "بوكاريلي" الذي يعمل طيلة الليل، والذي أُغلق منذ عدَّة سنوات.

كانت ذكرى ضبابية مليئة بعازفي البوق والأغاني المصاحبة لها.. في إحدى المرات، تباهى الرَّفيق "فيرناندیس" بموهبته في مضغ الزجاج أثناء ارتجاله مونولوجات من التاريخ المكسيكي.. وطبقًا للمونولوج، عندما حكم العسكر، خسرنا الحرب، وعندما حكم المحامون، كُسرت القوانين، وعندما حكم الاقتصاديون، أفلس البلد!

طلبت "ليليانا" زجاجة من الروم، مختومة ومغلقة، وفتحت غطاءها البلاستيكي بأظافرها.. بحلول الساعة الثالثة صباحًا كانت الزجاجة قد صارت نصف فارغة، وقد صرنا مغطين بالعرق، عندما حاولنا الرقص على نغمات "إين آ جادا دا فيدا"، و"كابايو بييخو".

كان شارع "بوكاريلي" فارغًا عندما غادرنا بار "بوكا"، بينما الرياح القوية تعصف بالمهملات متسببة في تتطايرها في الهواء. التمعت قضبان عربات الترام التي توقفت عن العمل منذ زمن تحت أنوار الشارع الشاحبة.

ألحَّت "ليليانا":

- خذني لـ"ثينجاروس".

قبل أن يتم إغلاقه، كان "ثينجاروس" هذا بارًا غير قانوني اعتاد السكارى وبائعات الهوى من "زونا روزا" التردد عليه والبقاء حتى الفجر. قامت نادلة تُدعى "مينيرفا" بتحية "ليليانا" بصرخة تدل على السعادة. استطعت أن ألاحظ في سعادتها المُبالغ فيها البقشيش الذي كان يتركه لها "إلباتو بيرتِس" وخلفاؤه.

لم تكن هناك موسيقى، فقط ضجيج أصوات السكارى يتشاجرون معًا في نوبات من الغضب، والتفاخر، والغناء، أو الغباء. اتهم رجل على منضدة مجاورة امرأة ما بأنها أهانته.

- ت.. تزوجيني، أ.. أم أنك تريد.. تريدين جعلي أبدو غب.. غبيًّا؟

أحضرت "مينيرفا" دلوًا مليئًا بالثلج وبعض الكوكاكولا ليتلاءما مع نصف زجاجة الروم المتبقية معنا من بار "بوكا"، والتي وضعتها "ليليانا" على المنضدة. عادت "مينيرفا" بعد لحظات بمطفأة سجائر بقيت معلقة بين بطنها والسُّوار الذي أحاط بعنقها. كانت سيدة قصيرة رفيعة ذات شعر أسود كثيف يشبه لبدة الأسد. فتحت دُرجًا أسفل مطفأة السجائر لترينا أنه ممتلئ بأقراص المخدرات!

أخذت "ليليانا" اثنين في راحة يدها وقذفت بهما في فمها قبل أن تسكب لنا كوبين من "الكوبا"، وهو شراب باهت اللون لذع شفتينا لأنه يحتوي على كثير من الروم وقليل من الكوكاكولا.

قالت "ليليانا":

- بما أنك مهتم بجرائم القتل يا "سيرانيتو"، دعني أخبرك عن الحقير الذي قتلته!

لثالث مرَّة حكت لي عن كيف قامت بالتخلص من رجل لأنه أهان أختها "دوروتيا".. استمعت جيدًا أول مرَّتين، وكُنتُ أستمع جيدًا هذه المرَّة كذلك.

في تلك الأيام كان بوسعي كتابة ما سمعته حرفيًّا فيما بعد من الذاكرة، وهي مهارة فقدتها منذ ذلك الوقت. استمعت بتركيز لحكايتها في "ثينجاروس"، وهي بقعة اختفت من المدينة ومن الذاكرة كذلك.

نسيت "ليليانا" أنها أخبرتني القصة مرَّتين مسبقًا، فحكتها لي من البداية للنهاية كما لو كانت المرَّة الأولى، وفي هذه الإعادة أضافت تفصيلًا مشؤومًا جديدًا!

قالت إنها شاهدت إعدام "ألكاتراتشو".. والأكثر من هذا، أنها أخبرت قاتليه بالطريقة التي تريده أن يُقتل بها! لا تتذكَّر "دوروتيا" شيئًا عن هذا، أو هكذا

أخبرتني "ليليانا"، وهي الآن تعيش حياة زوجية سعيدة، لديها عشيقان، وابن ظنوا في البداية أنه متأخر عقليًّا، قبل أن يتضح أنه عبقري بالرياضيات والحساب.

محت قصتها كل آثار الخمر من رأسي، فقلت:

- هيَّا نذهب لنأكل شيئًا.

أجابتني:

- أعرف المكان المناسب.

انتهى بنا الأمر في الكافيه البائس الموجود بحانة "تلاكوكويميكتال"، وهو المكان الذي تجسَّست من مطبخه ذات مرَّة على "ليليانا" و"إلباتو". سرنا المسافة القصيرة التي تفصل الكافيه عن منزلي، حيث نمت حتى الظهر.

عندما استيقظت، كانت "ليليانا" قد استحمَّت. قامت بقلي بعض الهوت دوج، وفتَّشت خزانة الخمور الموجودة عندي، حيث لم تجد من الخمر إلا زجاجة قديمة من الروم دون غطاء.

ناولتني كوبًا من شراب "الكوبا" المخلوط بالروم من الزجاجة عديمة الغطاء، وبعض الهوت دوج، قبل أن تجعلني أُغيِّر ملابسي لكي آخذها لشقتها لتتمكن هي الأخرى من تغيير ملابسها.. ومن شقة "ليليانا" ذهبنا للبار الموجود بفندق "جينا"، وهو فندق لا يرتاده الكثيرون في شارع "موريلوس".. بعد "جينا" ذهبنا لتناول شيء من الطعام في مطعم "السفراء"، وهو مطعم عتيق في "باسيو ديلا ريفورما" يُجاور جريدة "إكسيلسيور".

ومن مطعم "السفراء" ذهبنا لكباريه "آل باتيو"، الذي شهد عروض "خوزيه خوزيه" قبل الأخيرة.. ومن "آل باتيو" ذهبنا إلى بار "ليون" في المنطقة التاريخية.

خطرت لي ذكرى ضبابية من الماضي تتعلَّق بنادل يُدعى "لويس". كان الجميع وقتها، وحتى "ليليانا"، ينادونه بـ"مسيو". اعتاد أن يحضر لنا زجاجة مغلقة من

الروم والكوكاكولا المثلجة، لنشربها أثناء الاستماع لمجموعة من العازفين القدامى.

مع اقتراب الفجر، توجهنا لصالة احتفال مزدحمة في "لا بالما"، حيث لا يأتي النهار أبدًا، ويمكنك الرقص والشرب حتى الظهر.. ترنَّحنا تحت الشمس الحارقة خارجين من ظلام الليلة السابقة، لنواجه المدينة الصاخبة كشبحين مخمورين.

توجَّهنا صوب فندق قريب للنوم.. عندما استيقظت في وقت متأخر من فترة الظهيرة، كانت "ليليانا" بجانبي، وقد استحمَّت للتَّوِّ وغسلت شعرها. كان ضوء النهار في وجهنا عندما غادرنا الفندق. وعلى الرغم من أن ملابسنا صارت مهملة، فإننا كنا مستعدين وراغبين في مواجهة العالم. لا أتذكَّر الكثير عن اليومين التاليين.. فقط قائمة مكتوبة على عجلة في مذكرتي للأماكن التي ترددنا عليها.

من الفندق الموجود في "بالما" توجهنا لـ"بويرتا ديل سول"، وهو بار كان موجوداً بالشارع نفسه، وبعده ذهبنا لمطعم "بريندیس" في السادس عشر من سبتمبر.. وبعد المطعم ذهبنا لصالون "ريفيير"، حيث يبدأ الرقص مبكراً، وبعده ذهبنا لشارع "بيرتِس"، وهو بمثابة مأوى لأندية الفنانين الذين لم تعد تُرى عروضهم ذات الايحاءات الجنسية الصادمة إلا في الصفحات المفقودة للمجلات الثقافية المغمورة.

بعدها ذهبنا إلى فندق "كتالونيا" بمقاطعة "دوكتوريس"، حيث يتم تأجير الغرف بالساعة. نمت، وعندما استيقظت، وجدتُ نفسي في فراش في مستشفي المقاطعة العام، حيث تدلَّت الأنابيب من إحدى ذراعيَّ، وبداخلي شعرت بإحساس من السلام الداخلي المشابه للموت.

لكن "ليليانا" لم تكن موجودة بأي مكان!

الفصل الرابع

قضيتُ العامين التاليين في جامعة "لوا"، حيث قمت بكتابة كتابي عن "ويتزيلاك".. كُنتُ أذهب طيلة الوقت دون أن أسمع شيئًا - أو أهتم بأن أسمع أي شيء - عن "ليليانا".

أنهيت الكتاب. وفي يوم حفل إطلاق الكتاب في "مكسيكو سيتي" وقفت في الطابور لتحصل على نسختها الموقعة. كانت عيناها السوداوان تفوحان بمزيج غريب من الكبرياء والخجل، أو ربما كان هذا مجرد تأثير جرعة كوكايين تعاطتها. قصة شعرها القصيرة وخياطة ردائها ذي اللون المشابه لجلد الغزال جعلاها

تبدو كطفلة مشاغبة، في حين تماشى الوشاح الأرجواني المحيط برقبتها مع لون طلاء الشفاه الذي وضعته.

عندما وصلت لمقدمة الصف قالت:

- لم يُذكر اسمي في الكتاب، على الرغم من أنني شاركت فيه.

كتبت لها إهداءً: "إلى "ليليانا"، التي تسكن الكتاب على الرغم من أن اسمها لم يُذكر فيه".

قرأت الإهداء وقالت:

- هل يمكنني أن أنتظرك حتى نسترجع ذكرياتنا معًا؟

بحثت عنها عندما انتهيت من حفل التوقيع، لكنها كانت قد رحلت. لا يزال لديَّ رقم تليفون شقتها القديمة، حيث التقينا منذ ثلاثة أعوام. لم يرد أحد عندما اتصلت تلك الليلة، ولا في الأيام التالية. وعندما ذهبت للبحث عنها في شقتها، أخبرني الحارس أنها لم تعد تقيم هنا منذ شهور. هاجمتني نوبة من النوستالجيا دفعتني للبحث عنها في منزل آل "مونتويا" القديم في مقاطعة "سان رفاييل"، لكنني وجدته قد أصبح حضانة للأطفال!

استعنت بالرَّفيق "فيرناندیس"، الذي لم يعلم أين يمكن العثور على "ليليانا"، لكنه تعرَّف على مكان "إلباتو"، الذي تم الإمساك به في مكتب حكومي صغير يُديره "أوليباريس"، والذي كان على قيد الحياة حينها.

كُنتُ في حاجة جسدية لـ"ليليانا مونتويا". رمشت، وإذا بالسنين تمرُّ سريعًا لأتلقَّى مكالمة من الرَّفيق "فيرناندیس".

- مضت أربع سنوات منذ تحدثنا معًا يا رجل.. اعذرني على التأخير.. أتصل بك لأن صديقنا القديم "أوليباريس" قد توفي البارحة.. الجنازة ستكون في "جايوسو" في "فيليكس كويباس". ربما نتقابل هناك.

أدهشتني وفاة "أوليباريس" أكثر من عدم سماع صوت الرَّفيق لأربعة أعوام،

وأكثر حتى من الاستمرار دون "ليليانا". قلت له:

- الأمر يبدو كأنه البارحة!

الحياة تمضي كخفقة قلب، ونحن مثلها.

كما قلت، وجود "إلباتو بيرتِس" في جنازة "أوليباريس" أشعل بداخلي الرغبة في "ليليانا مونتويا". فقدت آثارها في السنوات الأربع التالية لصدور كتاب "ويتزيلاك". أخبرت نفسي أنه لو كان هناك أي أثر لـ"ليليانا"، فلا بد أنني سأعثر عليه مع أصدقاء "أوليباريس" و"إلباتو"، الذي أفترض أنه يشتاق لها بقدر اشتياقي.

الرَّفيق "فيرناندیس" هو خطوتي الأولى في بحثي عنها، وسأجعله يخبرني بكل ما يخص "إلباتو"، والراحل "أوليباريس". عاد لي الرَّفيق خالي الوفاض تقريبًا.

- آخر شيء سمعه الجميع عن "ليليانا مونتويا" هو أنها كانت تُدير فندقًا في "أنتيجوا" بـ"جواتيمالا".. ثم امتلكت بارًا في "لوس كابوس"، حيث اعتادت أن تغني، وهذا هو كل شيء.

سألته عما إذا كان "إلباتو" هو مصدر تلك المعلومات.

- حاول "إلباتو" أن يبقي عينيه عليها، لكنه لم يعد على علم بمكانها.. لم يعد هناك من يبحث عنها غيرك.. أتفهم رغبتك الجنسية والأدبية حيالها، لكنني أنصحك أن تبقى بعيدًا، فهي امرأة شائكة تركت جيلنا كله معلقًا في حبالها.. متى قلت إنك رأيتها آخر مرَّة؟

أخبرته ثانية:

- من أربع سنوات.

- من أجل راحة بالك ومصلحة الأمة، انسها.. كل من حاول أن يعبث معها فقد نصف مخالبه.

كان الرَّفيق محقًّا، فـ"ليليانا" كانت دائمًا ما تدخل أو تخرج من حياتي مصحوبة بكارثة.. احتفظت بمكانتها في مؤخرة ذاكرتي.

حبي لتلك المرأة يفوق خوفي منها، لكن كان الخوف دومًا هو ما يفوز.

تسببت قصتها بخصوص قتل "ألكاتراتشو" في إصابتي بالكوابيس لسنوات.. أحيانًا، كنت أرى نفسي قاتلًا محترفًا ، وأحيانًا أخرى كُنتُ أرى نفسي قتلته بالفعل وأحاول الهروب من القانون كأنني حيوان يطاردونه.

استيقظت ذات صباح بخاطر مرعب يدق في ذهني: أنا من قتلت "ألكاتراتشو"، وقد فعلتها لأن "ليليانا" طلبت منِّي هذا، ثم قام عقلي المجنون بمحو ما فعلته!

كُنتُ مغطى بالعرق وأرتجف. احتجت لبضع ثوانٍ لأستجمع أنفاسي وأعترف بأن كوابيسي قد أمست أكثر قوة وأكثر دفعًا للجنون على مرِّ السنين.

أتذكَّر أنني قرَّرت التحقيق في مقتل "ألكاتراتشو"، وهو الالتزام الذي أتذكَّر أنني نسيته.

بعد جنازة "أوليباريس"، قرَّرت ثانية أن أقوم بالتحقيق في مقتل "ألكاتراتشو".. محاولة حل هذا اللغز كانت طريقة لتتبع "ليليانا". صحيح أنها طريقة غير مباشرة لأكون صادقًا، وربما كُنتُ أُفضِّل عدم العثور عليها، لكن ربما يتقاطع طريقانا أثناء رحلة بحثي.

بدأت بتلخيص ما أعرفه بالفعل.. أخبرتني "ليليانا" عن مقتل "ألكاتراتشو" ثلاث مرَّات، وكل مرَّة كانت تقول إنها هي من طلبت من "إلباتو بيرتِس" قتله.. لم تتغير تلك المعلومة أبدًا.. في نسخة القصة الأولى، يقتله "إلباتو" ويصور الجثة لإثبات الموضوع، أما في نسخة القصة الثانية، تذهب "ليليانا" مع أختها "دوروتيا" لرؤية الجثة، وتركله "دوروتيا" بقدمها لتتأكد من كونه قد مات.

أما في النسخة الثالثة فكانت "ليليانا" حاضرة بنفسها وقت الاغتيال، وهي مَن

حددت الطريقة التي يجب أن يقتل بها "ألكاتراتشو".. كتبت رواية قصيرة مستوحاة من النسختين الثانية والثالثة، قبل أن أتخلص مما كتبته.

لم أنشرها لأنني كُنتُ خائفًا من "إلباتو بيرتِس".. ربما كان وحشًا تمكنت "ليليانا" من ترويضه، لكن لا يمكنك أن تأمن شره.. في الرواية التي كتبتها، ذكرت أن شخصية "ليليانا" تتم إساءة معاملتها مثل أختها الضحية.

اعتبر الراوي أن مثل تلك التجاوزات أمر مفروغ منه، وأن شعور الذنب سينهش الأختين.

وفي النسخة الثالثة من الحكاية، تصر "ليليانا" دون وعي على أن ذلك الإثم ليس له توابع. لم تشعر بالذنب، ولم تشعر به "دوروتيا" كذلك، والتي كان لديها زوج، عشيقان يحبانها لدرجة الجنون، وابن يكاد يكون عبقريًا.

في الجزء الخاص بها، تخلصت "ليليانا" من "إلباتو" وارتبطت بعشاق أثرياء مثله.. يمكن القول إن سوء الحظ قد حصنها ضد المعاناة وجعلها منيعة ضد اللوم. بالنسبة لـ"ليليانا" وأختها "دوروتيا"، ما كان يهم حقًا هو النتائج، أما الشعور بالذنب فلا علاقة له بالموضوع.

الملاحظات التي أبقيتها من رفقتي قبل الأخيرة لـ"ليليانا" – رحلتنا لـ"ويتزيلاك"- تضمَّنت تاريخ مقتل "ألكاتراتشو": 14 فبراير 1978 ، يوم احتفال الفلانتاين.

- هادياه بهدية حب بمناسبة الفلانتاين.

هذا ما قالته "ليليانا" ودونته في ملحوظاتي.

قضيتُ يومًا كاملًا في مكتبة مختصة بالجرائد والنشرات الدورية، أتفحَّص كل صفحات الجرائم في الجرائد من هذا التاريخ، لكنني لم أعثر على شيء!

انتقلتُ من الجرائد للمجلات، وكانت أخبار جرائم القتل والحوادث كثيرة بشكل مهول: جرائم، حوادث، كوارث، تسجيلات لجرائم قتل بالجملة.. شعرت بالرعب، وبتنميل في جسدي مع نهاية اليوم.

مرَّ بي خبر عن اختفاء "صحفي أجنبي" على شواطئ "أواهاكا"، كُنتُ قد قابلته مُسبقًا، بعد هذا الخبر بعدَّة صفحات وجدتُ عنوانًا رئيسيًّا آخر يتحدث عن موت سائح أجنبي في بار رخيص.

فيما بعد وجدتُ عناوين تتحدث عن موت وكيل عارضات أزياء أجنبي هو الآخر، غرق في "مانزانيلو" .

يبدو أن الأجانب يكتسبون سُمعة سيئة في تلك الصفحات. بحثت عيني تلقائيًا عن كلمة "أجنبي" في المجلة التي كُنتُ أتصفَّحها.. وبعنصرية، تساءلت عما لو كانت تلك الخلطة السامة من الدماء الأجنبية والحوادث المميتة لها مغزى خاص.

عُدتُ لنسخة 1978 ، وقرأتُ فقط القصص التي تحكي عن الأجانب المقتولين، فلم أجد شيئًا كذلك.. طلبت أعداد عام 1979.. وجدتُ عنوانًا رئيسيًّا في عدد أول أسبوع في مارس يقول: "مقتل أجنبي في جريمة قتل بدافع الانتقام"، القصة التي تلته كانت تقول : "العثور على الهندوراسي البائس "كتالدو بِنيا" مقتولًا بعدما استدرج عاهرتين شابتين لبيته". استمرت الحكاية:

"من الواضح أن حياته البائسة هي التي قادته لهذا المصير. لقي الفتى مصرعه برصاصتين في الصدر وواحدة في الرأس. انتهت أيام مطاردته للأبرياء والمنحرفين أمثاله. أفعال ذلك الهندوراسي الحقير البغيضة كانت بمثابة وصمة عار على اسم بلد جميل يجاورنا".

وأكملوا: "التحريات لا تزال مستمرة في مكاتب مكافحة الجريمة "الخدمة السرية سابقًا"، فذلك الهندوراسي كان ذا نفوذ وأهمية كبيرين، والسلطات تعمل على الكشف عن صلاته المحتملة مع المجموعات الإجرامية الأخرى".

صحَّحتُ السنة التي أبحث فيها، وأعدت زيارة الجرائد اليومية، فبدأت بمارس 1979، ولم أجد شيئًا.

عُدتُ لشهر فبراير ولم أعثر على شيء في يوم 15 أو 16، لكن في يوم السبت

17 وجدتُ قصة عن موت (قوَّاد يُدعى "كلوتالدو بِنيا")، وتبحث الشرطة عن صلات محتملة بين تلك الجريمة وعصابة من قاطعي الطريق الكولومبيين النشطة بالمدينة. تفقَّدتُ الجرائد اليومية واحدة بعد الأخرى لشهر يوليو 1979، لكن دون نتيجة.. عُدتُ للمجلات وتفقَّدتُ العام بأكمله، لكنني لم أعثر على سطر واحد عن الموضوع.

أعطيت الرَّفيق "فيرناندیس" بعض المال ثم سألته عما إذا كان يعرف أي شخص يمكنه أن يساعدني بخصوص قراءة ملفات عام 1979 الخاصة بوحدة DIPD ، وهي وحدة التحقيقات ومكافحة الجريمة، والتي تم حلها عام 1983.

أخذني الرَّفيق "فيرناندیس" لزميل دراسته القديم "ريكاردو أنتونيس"، والذي كان لفترة طويلة مقربًا من "إلباتو بيرتِس"، قبل أن يصبح بالنهاية عدو "إلباتو" الشديد. وبصفته أول رئيس مدني للشرطة، مثَّل "أنتونيس" كارثة كُبرى. منذ عشرة أعوام، أثناء أيام مجده، حدثت بيننا مشاجرة صغيرة، لكن لا يمكن نسيانها.. أثناء تناولنا العشاء في مطعم "سيسيرو" الأنيق، رفضت علنًا زجاجة من النبيذ كان قد أرسلها هدية لمائدتي.

أخبر "أنتونيس" الرَّفيق "فيرناندیس" أنه سيسعد لمقابلتي بمطعم "سيسيرو".

كان هو والرَّفيق في انتظاري عند وصولي، حيَّاني بذراعين مفتوحتين. قال إن تلك الجلسة ستكون جلسة ودية بين أصدقاء، ولكن لكي تبقى كذلك، فيجب عليَ أن أكشف أوراقي كلها في الحال.

سألني عمَّا أريد، فكرَّرت ما قلته مُسبقًا للرَّفيق "فيرناندیس" عن أنني أريد نسخة من ملف قضية الهندوراسي المدعو "كلوتالدو" أو"كاتالدو بِنيا"، والذي قُتل في منتصف فبراير 1979.

لـ"أنتونيس" شارب كشارب حصان البحر، ورأس ناعم ككرة البلياردو.. أما رموشه فكانت طويلة، بينما أصابعه سميكة ومشعرة.. على الرغم من أنه بدا لطيفًا، إلا أنه كان يتصرف ببرود.. حول معصمه الغليظ المشعر التفت ساعة ضخمة.. لم

يسأل عن سبب اهتمامي بالقضية، لكنه لم يدع شكًّا بأنه يعرف تفاصيلها.

- سأحضر لك الملف، اعتمد عليَّ في هذا، لكن ما الذي تريد معرفته، ما حدث حقًّا، أم ماذا يوجد في ملف القضية؟

أجبته:

- كلاهما.

سارع "أنتونيس" بشرح سؤاله:

- ما يوجد بالملف ليس بالضرورة ما حدث، فما يتم تسجيله بملف القضية شيء، بينما ما يوجد بدفاتر الشرطة شيء آخر، ودفاتر الشرطة هي الأدق.

لم أستوعب سريعًا أن "أنتونيس" يحاول تقديم عرضًا لي، وعندما لاحظ الرَّفيق "فيرناندیس" أنني ضائع، تولىَّ الشرح:

- ما يقصده "أنتونيس" هو عما إذا كُنتَ تريده أن يبحث عن قائد من قادة الشرطة في تلك الأيام يكون على معرفة تامة بالقضية.

أجبته تلقائيًّا:

- نعم.

- سيكلفك هذا زجاجة من النبيذ.

قالها "أنتونيس" وهو يتثاءب.

وافقت، فأمسك"أنتونيس" بقائمة النبيذ واختار منها نوع إسباني اسمه "تينتو"، وهو أغلى نوع نبيذ في القائمة بأكملها. واضح أن طلاب "أوليباريس" القدامى لا يفوتون حيلة من حيله. لكن يجب أن أعترف أن "أنتونيس" نفذ نصيبه من الاتفاق، فبعد أسبوع أرسل لي نسخة من الملف، ثم اتصل بي ليدعوني لعشاء آخر، ووعدني أنه سيدفع ثمن النبيذ هذه المرَّة.

تناولنا طعامنا ثانية في "سيسيرو"، وبينما كنا نفكر في أي طبق حلوى سنختاره، اقترب منا رجل كبير السن بدا يقظًا للغاية على الرغم من ملابسه المكرمشة البالية.

تناثر شعره الرمادي المشعث كعرف فرس فوق جبهته المنخفضة.. بينما كان النادل يوصله لطاولتنا، دار بعينه في المكان كما لو كان سيقوم بتصويره.. صافحنا قبل أن يجلس، فشعرت بيده خشنة ومتصلبة.

طلبنا طبق الحلوى.. أنهى "أنتونيس" قهوته ورحل عندما بدأت المحادثة تتجه نحو العمل.

- أعتقد أنه سيكون من الأفضل أن أترككما تتحدثان على انفراد.

رحل الرَّفيق "فيرناندیس" معه، بحجة أنه لديه مشوارًا ليقوم به.

كان الجلوس بمفردي مع القائد العجوز كالنظر لحائط خالٍ.

تحدث الحائط أخيرًا:

- السيد "أنتونيس" أخبرني عن الشيء الذي تبحث عنه.. أيمكننا التوقف عن إضاعة الوقت والدخول في صلب الموضوع؟

الفصل الخامس

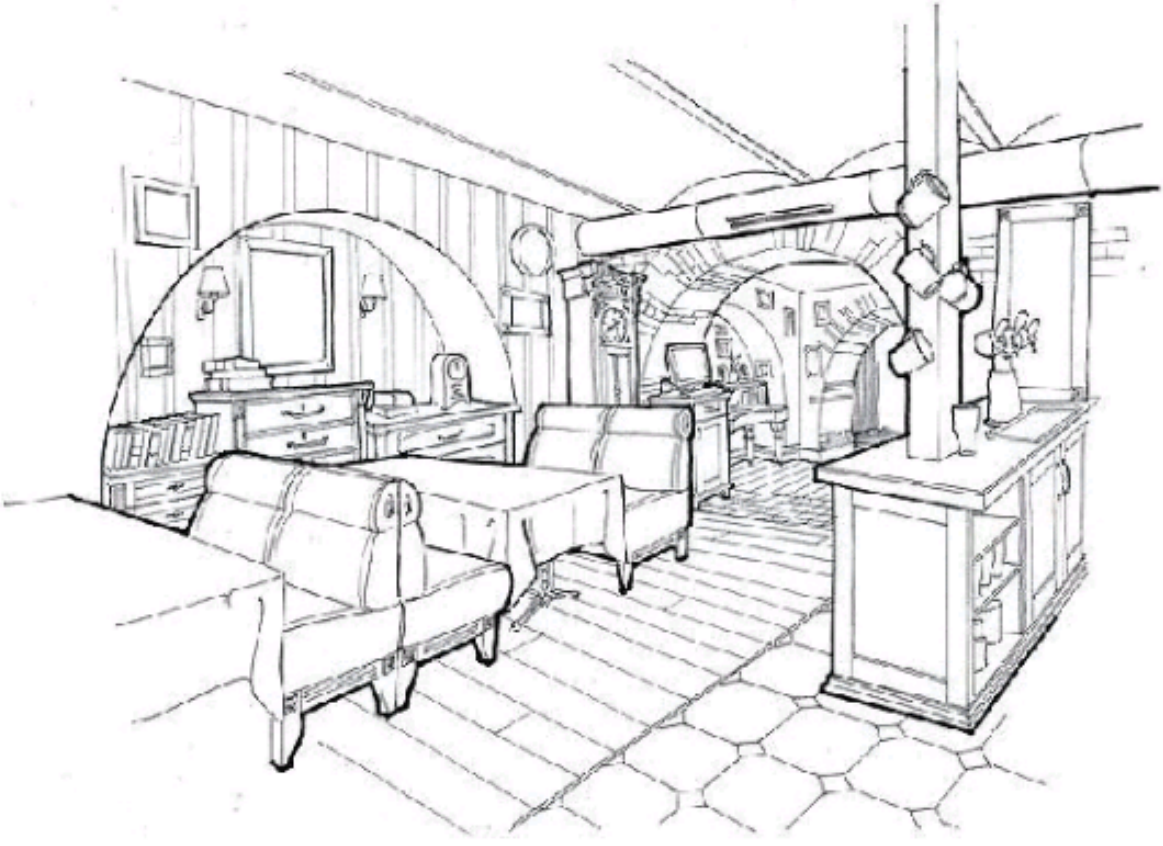

يتميَّز مطعم "سيسيرو" بكونه مكانًا يلجأ إليه المرء في حال احتاج لصُحبة، بالإضافة لتناول الطعام. هناك طاولات تتسكَّع عليها النساء بعدما يلتهمن الطعام، بحثًا عن فرصة لتناول الشراب، والتدخين، وتبادل الحديث، والضحك من قلوبهن على النكات التي يقلنها. تكون الضحكات مقصودة كطُعم لاصطياد الرجال المستعدين لالتقاط الطعم ودعوتهن لطاولاتهم. نظر القائد العجوز من فوق كتفه اليُمنى لواحدة من تلك الطاولات، ثم من فوق كتفه اليُسرى قائلًا:

- العاهرات اللطيفات جميلات للغاية.. أعتبرهن أقوى المغريات لنا.. تبًّا!

شعرتُ بنظراته تخترقني. كانت القرنيتان باهتتين عند الحواف، فبدا كأنه يراقبني من على بُعد. جفناه كانا باديي العروق ورفيعين للغاية.

سألني:

- هل ستدون ملحوظات؟

لا بد أنني لم أبدُ شديد الذكاء لأنه نظر نحوي باشمئزاز وأعاد كلماته بصيغة أخرى:

- هل ستدون ما أخبرك به؟ هل ستستخدم اسمي؟

أجبته:

- لا!

- لن تقول إنك تعرفني لو حدث وقابلتني ثانية، اتفقنا؟

لم أكن واثقًا تمامًا من كوني فهمت ما يريد أن يقوله لي، لكنني وافقت على أي حال.

- اسمي "نيري".. ولن أقول أي أكاذيب، تمام؟

هززت رأسي في آلية.

- ما تعرفه مُسبقًا عن القضية صحيح، باستثناء أن رجلين قُتلا، وليس واحدًا! الرجل الذي تقول إنه أجنبي مات فعلًا، لكن القتيل الآخر أكثر أهمية!

أجبته:

- لكن لم تكن هناك أي إشارة لقتيل آخر في الصحف أو في الملف!

أجابني:

- الجزء الأهم تم إغفاله. أتذكر تلك القضية جيدًا لأنني كدتُ أموت ذلك اليوم! ذهبت لمدينة في "موريلوس" باحثًا عن مختطف ما. لم أعرف كيف فعلها، لكنه تمكن من إشعال ضغينة المدينة بأكملها ضدي. أرادوا شنقي أمام الكنيسة، لكن القسيس أنقذني، فكادوا يشنقونه هو الآخر. عدت لـ"مكسيكو سيتي" فجرًا، وبالمكتب طلبوا منِّي أن أستجيب لبلاغ مُقدَّم من بيت دعارة.. لم يكن بيت دعارة

حقًّا.. كان مجرد شقة مفروشة في مقاطعة "سان رفاييل".. وعندما وصلت إلى هناك كان المالك - الرجل الذي تسأل عنه - ميتًا بالفعل.

استجوبوا الرجل المهم، لكن الاستجواب خرج عن السيطرة، فبدلًا من أن يقوم بتفسير سبب ضربه، استبعده المحققون من تقريرهم.

قال لهم القائد "ريسينديس": "عُثِرَ على قوَّاد مقتول هنا.. هذا هو ما حدث فقط، مفهوم؟".

تخلصوا من الجثة وتركوني مع القتيل الثاني، وهو الشخص الذي تهتم أنت به.. كان من المفترض أن أنتظر تعليمات أخرى. أتى الصباح، لكن دون أي تعليمات جديدة.. وهنا بدأ الضغط في التراكم.. فتلك القضية تضمنت كثيراً من المفاوضات.

عندما سألته عمَّا يقصده بقوله "مفاوضات"، أجابني:

- هناك عداء بين سكرتير الشؤون الداخلية وعمدة المدينة.

- السكرتير يستعد لتدمير العمدة، وكان يظننا مكتبًا فاسدًا، وهو ما لا يبعد عن الحقيقة كثيراً.

في ذلك الوقت، كان المُدَّعي يسأل ضحايا الجرائم الكُبرى عمَّا إذا كانوا يريدون الجناة أحياءً أم أمواتًا. كانت الإجابة غالبًا: "أمواتًا"!

ولهذا السبب كان لدينا قسم للاغتيال!

كل واحد من وحدتنا انتمى له في وقتٍ ما.. بعضهم انضم من أجل المال، وبعضهم انضم ليُسعد رؤساءه.

سألت "نيري":

- هل انضممت لهذا القسم؟

- ليس للمال.. فقط إذا استحق الجناة القتل!

سألته:

- وكيف تعرف هذا؟

أجاب:

- عندما يكون مختلًا حقيراً.. كمعتادي الاغتصاب والقتلة.. كلنا لدينا مقاييس خاصة بنا.. يمكنني أن أقرر بثقة كاملة أنني لم أقتل أبدًا إلا من استحق القتل!

طلب مياهًا معدنية، وهز رأسه، أغلق عينيه، ثم نظر نحوي ثانية.

- كان السكرتير الداخلي يحاول إثبات أن المُدَّعي العام قام بعمليات إعدام غير قانونية.. أراد التخلص من العمدة، فطلبه للتحقيق في كل شيء كان كتنفيذ حكم الإعدام بالفعل.

لو سألتني، لأخبرتك بأننا تصرفنا كرجال شرطة محترفين نتصرف كما يلزمنا عملنا عندما قُتل الرجل المهم.

سألت:

- وكيف يكون هذا من مستلزمات عمل فريقكم؟

شرح لي القائد "نيري" باستفاضة:

- في تلك السنوات، لو لم تكن العصابة على قائمة المطلوب القبض عليهم لدى الشرطة - والتي يتم تحديثها كل ثلاثة أو أربعة شهور - أو لو كانت عصابة لم يسمع بها أحد - وهو شيء يكاد يكون مستحيل الحدوث - فسيتوجب علينا أن نتخلص منها. في تلك الأيام كانت الشرطة تحكم الشوارع. كنا نحن القانون، وخاف الجميع منا.. عندما يزور مطبقو القانون مكانٍ لتجمع اللصوص - مثل "تيبيتو" على سبيل المثال - يحلق صغار المجرمين حول القائد كما الذباب. وكان يدور بيننا حوار كالتالي: "كيف حالك يا سيدي؟ أي خدمة؟".. " حدثت جريمة سرقة وتم اغتصاب صاحبة المنزل، لكن العائلة في صفنا، أي إن الوغد الذي

فعلها سيتم تدميره.. الأمر عائد لكم يا رفاق في معرفة مَن هو!".

وكان هذا كافيًا ليعرفوا مَن فعلها. أحيانًا كانوا حتى يقوموا بتسليم الجناة بأنفسهم، ثم يسلمهم مكتبنا للجهات المسؤولة، ويصبح الجميع سُعداء. أمَّا في الحالة التي تقصدها أنت، توصل المكتب لأحد الجناة. عرفوا أن زعيم العصابة كان داخل الشقة التي عُثر على القتيل – قتيلك – فيها. ذهب الشرطيون للشقة، قتلوا صاحبها، وانتظروا ظهور زعيم العصابة، وعندما ظهر، استجوبوه. لكن كما أخبرتك سالفًا، خرج الاستجواب عن السيطرة .

سألت:

- مَن حقق مع الجُناة؟

- بعض الرجال من مكتب التحقيقات السري القديم. كُنتُ جديدًا وقتها، مجرد تلميذ. كانت وظيفتي أن أغطي وراءهم، أنظف المكان، وأنتظر أي تعليمات جديدة. تعذيب الزعيم أثمر عن معرفتهم بأماكن بقية أفراد العصابة. ذلك الصباح، استعادوا الأشياء المسروقة وقتلوهم جميعًا، ثم أمروني بأن أتصل بمكتب المُدَّعي العام وأخبرهم بقصة مقنعة يمكن إعلانها في الصحف: "قُتل القوَّاد على يد عُملائه، وقد انطلقنا للبحث عنهم لأنهم كانوا أعضاءً في عصابة".

في الحقيقة، لم نكن نبحث عن أحد، لكن على كل حال، لم يهتم أحد بما نفعله، وكانت هذه نهاية القصة. أتذكر كل التفاصيل جيدًا لأنني كما أخبرتك قبلًا، أوشكت على الموت حينها، كما أن ما شاهدته وقتها أفزعني لدرجة أنني تركتُ الشرطة تمامًا. فيما بعد، بعدما قامت وحدة DIPD بتنظيف البيت، عدت ثانية لأكون شرطيًّا. حملة التطهير تركت المدينة بلا شرطي واحد، فتوجب علينا بناء القوة بأكملها من أعلى لأسفل. كانت كارثة كُبرى. ما فعلناه حقًّا كان تفكيك قوات الشرطة الوحيدة الحقيقية بالبلد!

كانت لدى الزعماء سيطرة كاملة على المجرمين. فهم مَن حكموا العالم السفلي وكانوا جزءًا منه. تلك هي القصة التي لا يحب أحد أن يحكيها، لكن هذه هي

الحقيقة.

ترددت ضحكة امرأة عبر المطعم كزقزقة عصفور مصاب بالجنون، فنظر جليسي من فوق كتفه اليُمنى ليرى من أين أتت. تمتم:

- يا لها من ضحكة!

كانت عينا "نيري" تضحكان على ذكرياته.

سألته عما إذا كان يتذكَّر كل ما حدث تلك الليلة، فأجاب:

- لديَّ ذاكرة جيدة للغاية.. أثناء عملي، كانت تلك الذاكرة تقحمني في المتاعب، لكن كان بوسعها إخراجي من المتاعب كذلك. أتذكر كل شيء. كان عمل الشرطة يعتمد على الذاكرة في تلك الأيام، ولم نكن ندون شيئًا.

سألته عما إذا كان قد حدث أي شيء غريب تلك الليلة، وعما إذا كان أحدهم قد رأى الجثة، أجابني:

- نعم، فتاة ذات مظهر أنيق للغاية يحرسها محاميها. كنت قد تلقيت مكالمة من المُدَّعى العام، أخبرني فيها أنه أرسلهما لكي يشاهدا الجثة. بدا غريبًا لفتاة صغيرة مثلها أن تأتي لتشاهد الجثث، لكنها أتت مع صديق لرئيسي، والذي كان يشبه أولئك الذين يعملون بالجامعة.

سألته عمَّا إذا كانت الفتاة أتت بمفردها، أم أنها أتت مع أخرى.

- فتاة واحدة فقط هي مَن أتت، وكان معها حارسها، رجل الجامعة. كُنتُ أتذكر اسمه ومَن يعمل عنده، لكنني نسيت هذا الآن. أتذكر كل شيء عدا تلك النقطة.

سألته:

- وهل كنت معهم عندما شاهدوا الجثة؟

- لا، تركتهم بمفردهم ووقفت أحرس الباب من الخارج، وعند خروجهما حاول الرجل التبسُّط معي بطريقة خاطئة؛ حاول دسّ المال في يدي بينما هو في

طريقه للخارج، فقلت له: "أنا لست نادلًا يا سيدي!"، ورفضت أخذها. لكن ما الذي يثير اهتمامك بتلك القضية؟

أجبته:

- أخبرتني تلك الفتاة عنها.

- إذًا، فأنت تعرف بالفعل ما حدث؟ هل كُنتَ تختبرني؟

- لا، كُنتُ أختبر الفتاة.

جعلته إجابتي يضحك، لكن جفنيه المجعدين أخفيا لمعان عينيه. عاد تركيزه للطاولات التي جلست إليها السيدات. نظر من فوق كتفه، ثم نظر من فوق الكتف الأخرى.

قال:

- الطريقة المنطقية لترك مكان كهذا هو أن تخرج حاملًا واحدة منهن على ذراعيك. ماذا تقول لتدعو إحداهن لمصاحبتك؟

ودون أن ينتظر إجابتي، قام من مكانه مُعدِّلًا حزامه. كان يرتدي حذاءً من طراز رعاة البقر وبنطال جينز ضيقًا. بدت ساقاه قويتين، لكن منحنيتين كزوج من الأقواس، وكان يشعر بالألم أثناء سيره.

أثارت كلماته الأولى ضحكات النساء اللاتي جلسن إلى الطاولة التي اقترب منها، وقد بدين في الأربعينيات من عمرهن، بشعر أشقر ويضعن كثيراً من الماسكارا.

أخذ "نيري" في تقليد الطريقة التي أتصرف بها بينما هو مستمر في قول أشياء تضحك السيدتين. كانت إحداهن ترتدي ثوبًا أخضرَ، بينما الأخرى ترتدي واحدًا أصفرَ. كلتاهما كانتا ذات صدر ناهد ورقبة قصيرة.

عندما عُدتُ لشقتي ظللت أفكر في مصداقية "نيري" ذاك. كان واضحًا أنه أحمق وفهم قصة ما حدث بشكل خاطئ، كما أنه كان واضحًا أنه لم يُبال بمثقال ذرة

بأسباب اهتمامي بالقضية. كل ما يهمه هو كون "ليليانا" و"إلباتو بيرتِس" غير متورطين في قتل "ألكاتراتشو". فحجتهما بالدفاع عن شرف العائلة بدت غير ذات صلة بقصته. لكن نسخة "نيري" توضح كثيراً من الأشياء. أولًا، أن "ليليانا" لم تشهد مقتل "ألكاتراتشو" ولم تحدد وسيلة قتله، وثانيًا، لم تزر "دوروتيا" مسرح الجريمة، "ليليانا" فقط هي من فعلت!

ما تغاضيت عنه في تأملاتي هذه كان فداحة ما أكده القائد: "إلباتو" قتل "ألكاتراتشو" بإيعاز من "ليليانا"، وأخذها لرؤية جثته بمجرد موته. لكن ما لا تفسره نسخة "نيري" من الأحداث كان أكثر شيء يهمني: كيف نفذ "إلباتو" أوامر "ليليانا"؟

كان لدى القائد تفسير مختلف لموت "ألكاتراتشو".

الشرطيان اللذان قتلاه كانا أصلًا يبحثان عن عميل لديه وكان قائدًا لعصابة تسرق دون إذنهم ويجب أن يلقنوها درسًا. لكن تم قتل "ألكاتراتشو" بالخطأ، وليست لديَّ أي فكرة عن كيفية توافق رواية الشرطة هذه مع قصة "ليليانا" عن جريمة القتل.

يمكن أن يكون المُدَّعي العام، الذي كان رئيس "نيري" وصديق "إلباتو"، مفتاحًا لما حدث حقًّا. لكن المُدَّعي العام مات لكبر سنه. يمكنني العودة إلى "نيري"، لكن لا "إلباتو"، ولا "ليليانا" يلعبان دورًا في قصته بخصوص الجريمة.

كما أنني أفضِّل ألا أضطر للتعامل مع القائد "نيري" ثانية.

يمثل "أنتونيس" احتمالية أخرى، لكنني لا أرغب في أن أخبره نيتي أو أن أعطيه فكرة عمَّا أبحث عنه. الحقيقة أنني لستُ متأكدًا مما أبحث عنه، أتمنى فقط أن يقودني بحثي لـ"ليليانا". هذا هو هدفي الحقيقي، فأنا أشعر بالانجذاب لها – على الرغم من ترددي في الحديث عن ذلك الانجذاب – ولم أتوقف للحظة عن الاشتياق لها!

لم يكن أمامي خيار إلا مواجهة "إلباتو" واستخلاص الحقيقة منه، لكنني لستُ

مستعدًّا لهذا بعد. فاحتقاري لـ"إلباتو" يفوق فضولي.

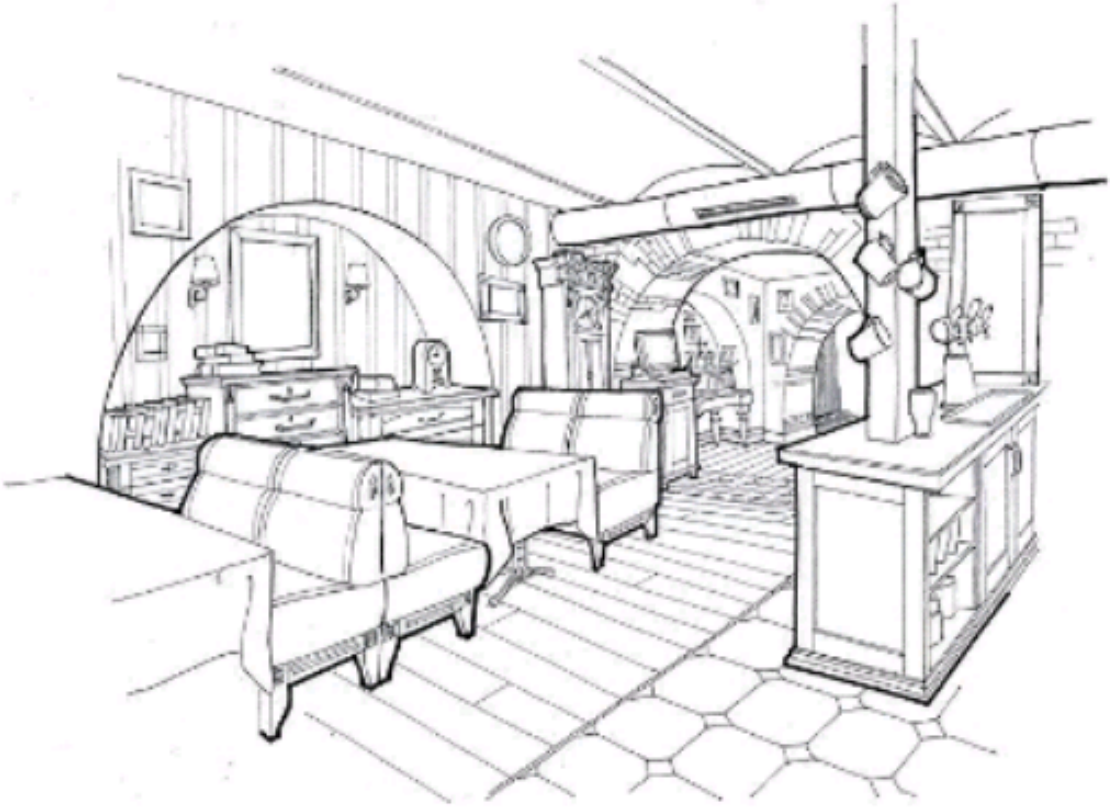

الفصل السادس

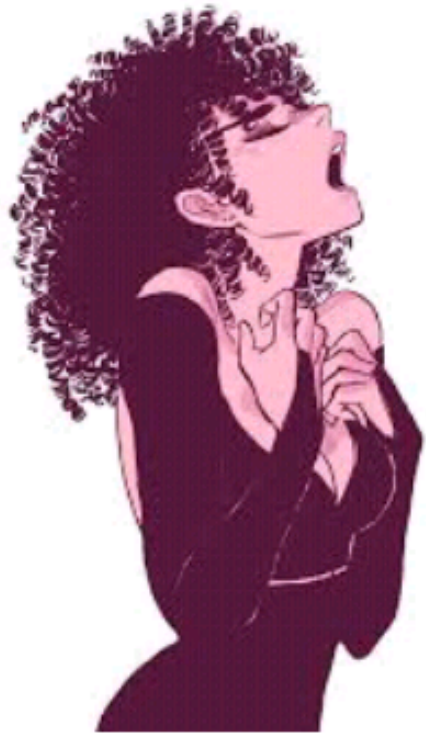

فقدتُ أثر "ليليانا" في فندق "لوس كابُس"، حيث سمعها شخص تُغنِّي، ولا يعرف أحد ما حدث لها بعد ذلك. لا الرَّفيق "فيرناندِيس" ولا "إلباتو بيرتِس"، ولا حتى بقية جيل "أوليباريس" الذين تدين لهم بصنع أسطورتها وإفسادها في الوقت نفسه .

أحيانًا، أتخيل أن الأطلال هو المكان الذي تحيا فيه، أو ربما لم تعد حية حتى، في ذاكرة ذلك الجيل.. كان اختفاؤها عرضيًّا، شيئًا لم أتوقف عن التفكير فيه. اعتبرت أن عدم قدرتي على العثور عليها غلطتي، وكان لومي لنفسي لفقدان أثرها يزيد من شعوري بالذنب.

أخبرني رفاق "أوليباريس" كثيراً من الحكايات عن "ليليانا مونتويا"، وكانوا يقولونها دون تأثر أو ضغينة. كانت لا تزال حية في إشاعاتهم. كانت حكاياتهم عنها تأكيدًا للقاعدة القديمة التي تجعل الإشاعة، سواء كانت جيدة أو سيئة، تُكسب من تقال عنه سُمعة مشبوهة.

تم تبادل الحديث عن مغامرات "ليليانا" كالعُملات المعدنية القديمة التي تبادلتها أيادٍ عديدة.. وبسبب تجميعي تلك "العُملات" حول مكتبي، شعرتُ وكأنه تحوَّل إلى مائدة قمار.

لا أقول إن كل الحكايات صادقة، أو إنها تحمل معاني سرية، لكنها ببساطة تستحضر الأشياء التي تتغافل عنها خيالاتي.

ذكريات امرأة مستحيل أن أحصل عليها، ومستحيل أن أنساها.

أكثر حكايات متداولة بين رفاق "أوليباريس" كانت عن الطرق التي أثارت بها "ليليانا" جنون "إلباتو بيرتِس". اعتادوا الإكثار من المبالغة حول كيف كانت تفعل معه بينما كانت لا تزال فتاة!

حتى الناس الذين يعتبرون أنفسهم أصدقاءه قالوا إنها طالما تمكنت من دفع "إلباتو" للجنون، فلا بد أنها امرأة من نوع خاص. كما أنه ليس سهلًا أن يكون المرء من أصدقاء "إلباتو"، لكن كل جيل "أوليباريس" ادَّعوا أنهم أصدقاؤه على أي حال. والسبب - غالبًا - هو كونه أسدى لكل واحدٍ منهم صنيعًا لا يستحقه، وأنه كان يعرف كل جرائم القتل التي ارتكبوها!

القصص التي تدور حول علاقة "إلباتو" بـ"ليليانا" تدور من وراءه، وتتضمن التالي:

حاولت زوجة "إلباتو" قتل نفسها بشرب زجاجة كاملة من الحبر الأسود، ومن أجل إتمام الأمر، اختارت ماركة "بليكان" - وهي أشهر ماركة للأحبار - تركت مذكرة انتحار لا تخفي فيها دوافعها، وذكرت فيها اسم "ليليانا" واضحًا صريحًا، متبوعًا بالاسم الثاني لكلٍّ من والدها "مونتويا"، وأمها "جينر".. وكلمسة أخيرة، ذكرت عنوان الشقة - التي اشتراها "إلباتو" من أجل "ليليانا" - بالتفصيل. وهي الشقة الموجودة ببرج يجعلها أعلى من سكان المباني المتواضعة التي تحيطه، على مدى جسر "ريو بييداد".

كان واحدًا من الأماكن القليلة في "مكسيكو سيتي" التي تطل على منظر مريح دون أي عوائق، من الجهات الأربع.

وذكرت الزوجة باستفاضة أن هذا هو المكان الذي ينام فيه "إلباتو" عدَّة ليالٍ كل أسبوع. حاول "إلباتو" أن ينفصل عن "ليليانا" بعد محاولة الانتحار هذه؛ لم يعد بوسعه رؤيتها بعد عثوره على بقايا حبر على شفتي زوجته، التي توسلت له ليعود لمنزله.

واعتمادًا على قرائتها لأدب العصور الوسطى وتمكنها منه، فقد أصرَّت على أن يتوقف عن معاشرة تلك "الماريتورنيس"، وهو لفظ إسباني قديم لكلمة "عاهرة".

كانت مدام "مونتويا" قد كتبت مُسبقًا عديدًا من المقالات عن حياة ومغامرات "دون كيشوت"، وكانت تعرف ما تتحدث عنه.

أعلن "إلباتو" لأصدقائه ومرؤوسيه، بالإضافة لجيل "أوليباريس"، أنه سينفذ رغبة زوجته، وهي تضحية عظمى نظرًا لحبه الكبير لـ"ليليانا". في وقت لاحق، أخبر أصدقاءه ومرؤوسيه أنه سيحتفل بعيد ميلاده في الشقة التي كان يعيش فيها مع "ليليانا". قبل نهاية الحفل، أخبرته "ليليانا" علانية أن بوسعه العودة لمنزله وزوجته ذات "طلاء الشفاه الأسود الشنيع". لم يكن هناك حاجة للقلق على "ليليانا" لأن الحفل كان يمتلئ بكثير من المعجبين بها. جلست على ساقي "أوليباريس"، الذي لم يكن قد مات بعد. كان الرجل لا يزال يتمتع بقواه العقلية مما جعله يدرك أنها تستغله، كما أنه كان وقتها سكرتير "إلباتو" الخاص. أزاح "أوليباريس" "ليليانا" وقفز واقفًا، وشرب نخب وفائه الخالد لرئيسه وصديقه. أمر "إلباتو" "ليليانا" بأن تتجه لغرفة النوم ليتمكن من الحديث معها على انفراد، لكنها اتجهت للبار بدلًا من هذا، وسكبت لنفسها شرابًا كما لو كانت لم تسمعه. طبقًا لجيل "أوليباريس"، حاول "إلباتو" تجاهل حركة التحدي التي قامت بها هذه، وبدلًا من العودة لمنزله، قضى بقية عيد ميلاده يتحدث أكثر من اللازم مع ضيوفه، كما لو كانت كل الأمور على ما يُرام، وأن شيئًا لم يتغير. الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو أنه عندما انتهى الحفل، ظل "إلباتو" مع "ليليانا" حتى الفجر.

وعلى الرغم من أن "إلباتو" ترك زوجته ذات الميول الانتحارية في الأسبوع التالي، فإنه لم ينتقل للشقة التي اشتراها لـ"ليليانا". كان يزورها فقط عندما تقوم بدعوته. بدءًا من اللحظة التي حاولت فيها زوجة "إلباتو" الانتحار وحتى انتهت علاقتهما، صارت "ليليانا" هي المتحكمة به!

ضمَّ جيل "أوليباريس" قصة عيد ميلاد "إلباتو" ومحاولة زوجته الفاشلة للانتحار لقصة لا يكفون عن سردها مرارًا وتكرارًا.

هناك قصة أخرى يحبون تكرارها كذلك عن "ليليانا"، عندما جعلت عميد الجامعة يرقص التانجو، بينما قادت هي الرقصة.

كانت تمسك بالعميد بغلظة بين ذراعيها، وتقرب شفتيها من شفتيه بقدر استطاعتها دون أن تقبله. أخذ الرجل يلهث كأنه كلب. ولتوقف الشائعات عن كونه عشيقها قالت:

- لو كان رقص التانجو يُجهده هكذا، فلا بد أنه سيموت لو شاركني الفراش، وبما أنه ليس ميتًا، إذًا فهو ليس عشيقي!

وقبل أن يفقد ما قالته تأثيره، انتشرت أقاويل إن "إلباتو" قد أصابته نوبة قلبية أثناء إحدى لياليه مع "ليليانا"، وطبقًا لحكاية واحدة هى الأقل انتشارًا، فإن الاستمتاع بملذات "ليليانا" يمكن أن يكلف المرء حياته.

لطالما فكَّرت أنني ربما كُنتُ بشكلٍ ما، السبب في بداية كل هذه الأقاويل، لأنني تم إدخالي المستشفي مرَّتين بعدما ضربني أخوها "روبين"، المرَّة الأولى كانت لأنني أخذتها معي في رحلة، والمرَّة الثانية لأنني أقمت علاقة معها.

يمكنني القول عن خبرة إن "ليليانا" خطيرة بقدر ما هي جميلة: لطالما أشعرتني مُغازلة الخطر بالإثارة!

في مقاطعة "سان رفاييل"، حيث عاشت عائلة "مونتويا" سنين كثيرة، يتمسك السكان بذكرى لا تزال حية كذلك وسط جيل "أوليباريس".

كانت "ليليانا" وقتها في الثانية عشرة من عمرها، وكانت تشاهد لعبة كرة قدم بالشارع من مكانها على رصيف المشاة. أحرز صبي هدفًا، ثم أمسك بالكرة ووضعها تحت قدمي "ليليانا" كتحية لها. حاول صبي صغير من الفريق المنافس استعادة الكرة لاستكمال المباراة، لكن خصمه الذي وضعها أسفل قدمي "ليليانا" طوق عنق الصبي وضربه بشدة لدرجة أن الصبي تكوَّم على الأرض يكافح من أجل التنفس. سارع بقية أعضاء فريقه للانتقام له، وقامت معركة ضارية أمام أعين الجيران المذعورة، والذين رأوا ما حدث من نوافذهم. قادت تلك الحادثة لشجار شوارع أشبه بنسخة شعبية من ملحمة "الإلياذة"، وقد ظل ذلك الشجار وتوابعه يؤرق سكَّان "سان رفاييل"، حتى بعد انتهاء ونسيان لعبة كرة القدم بشارع "تمارينو"، وهو شارع جانبي ربما تم تغيير اسمه أصلًا الآن.

ذكرت تلك المناوشات المُزمنة جيل "أوليباريس" بصراع بين فريقين أمريكيين لكرة القدم كان "إلباتو" يدربهما في الجامعة. أراد أن يجعل "ليليانا" تميمة الحظ للجانبين، لكن عندما أمسك كابتن أحد الفريقين بيدها، أخبره كابتن الفريق الآخر أن يترك يدها.

تم استخدام جسد الفتى في مسح أرضية المكان – حرفيًا ودون مبالغة - أثناء المشاجرة التي تلت ذلك، واحتاج "إلباتو" لأيام ليتمكن من إعادة السلام في الجامعة ثانية.

حدثت مشاجرة في نادٍ للرقص يُدعى "جاكارانداس"، وقد تحولت هي الأخرى لأسطورة.. خرجت "ليليانا" من الحمَّام تشتكي من أن أحدهم حاول التحرُّش بها!

لم يكن "إلباتو" قد وصل بعد عندما حدثت تلك الواقعة، ومن مكانه، كان "أوليباريس" يلعب دور المضيف، كما كان يراقب مجموعة من الطالبات اللاتي أحضرهن من أجل المناسبة. عندما أخبرت "ليليانا" العجوز عمَّا حدث، استخدم الموهبة التي يدين لها بالنجاح في حياته: عدم فعل أي شيء.

عندما وصل "إلباتو" وسمع بإهانة "ليليانا"، كان الرجل الذي تقرب منها يجلس إلى الطاولة المجاورة، ويحاصرها بنظرات وإيماءات موحية. نهض "إلباتو" من

كرسيه، غير آبه بأي شيء، ورفع الطاولة المجاورة من طرفها. ما فعله "إلباتو" حينها كلفه زيارة لمركز الشرطة، حيث كانت له اليد العُليا بمجرد قيامه بمكالمة تليفونية لصديق ذي نفوذ.

كما قام "إلباتو" بمشاجرة لا تُنسى في بار "بوكا" بشارع "بوكاريلي"، عندما تشاجر، وبمفرده، مع مجموعة من المشاغبين الذين احتلوا البار كما لو كانوا مجموعة من السائحين في رحلتهم الأولى لزيارة "الريفيرا" الفرنسية.. عندما رأى أولئك المتطفلين القادمين من مقاطعة "جويريرو" القريبة "ليليانا" وهي ترقص مع "إلباتو"، حاول أحدهم أن يقاطعهما، بينما حاول آخر أن يلمسها!

سحب "إلباتو" زجاجة من على طاولة، وكسرها على رأس الفتى الذي حاول لمسها، قبل أن يلوح بحافة الزجاجة المسننة في وجه صاحبه الآخر، كما لو كانت رمحًا زجاجيًّا ثلاثيَّ الرؤوس.

أخرج المتطفلان مطواتين من أسفل حزاميهما، قبل أن تدور سلسلة من الطعنات والمراوغات، حتى ظهرت كتيبة من العاملين بالمكان، والتي كبلت المتشاجرين بمفارش الطاولات أثناء صراخهم فيهم أن يتوقفوا عما يفعلونه.

كلما سمعت تلك القصة، اضطررت للاعتراف بأن "إلباتو" قد خاطر بحياته بطريقة لم أكن أنا لأفعلها في الغالب.

هناك كذلك اليوم الذي تناولت فيه الطعام مع "ليليانا" في مطعم "لا كافا"، وهو مطعم قريب من الحرم الجامعي، يقع في الطرف الجنوبي من المدينة. على الرغم من أنها كانت قد صارت عشيقة "إلباتو" منذ شهور معدودة، فقد بدأت بالفعل تسير بكروت الفيزا، وكثير من الأوراق النقدية الجديدة، التي انتفخت بها حقيبة يد حديثة فاخرة. دفعت الحساب مزهوة، قائلة إننا يجب أن نتقابل ثانية قريبًا لتناول وجبة أخرى على حسابها.

أرادت دخول دورة المياه الخاصة بالنساء قبل رحيلنا، لكنَّ رجلًا سكِّيراً قطع طريقها، وأخبرها أنه لن يدعها تمر إلا لو أعطته قُبلة أولًا. التقطت كرسيًّا

وحطمته على رأسه. تكوَّم الرجل على الأرض، ووجهه لأسفل، ومن حوله تناثرت شظايا الكرسي المحطم، وقد اعتلت وسادة الكرسي ظهره كأنها سرج حصان. تجمَّع أصدقاؤه حولي يريدون ضربي، ومرَّةً أخرى تدخل العاملون بالمكان. أخذنا نتبادل الإهانات في مركز الشرطة حتى تم السماح لي بالاتصال بالصحيفة التي أعمل بها، وبدأ المحرر يناشدهم لإطلاق سراحي، متحججًا بحصانتي بصفتي صحفيًّا.

ذكَّرني ذلك المشهد بمشهد آخر أعرف أن الناس تتحدث عنه من خلف ظهري، ودائمًا ما يجذب انتباه المستمعين.

يحكي ذلك المشهد الذي بلغ مرتبة الأساطير، عن كاتب طموح سرعان ما أصبح عضوًا فخريًّا في عائلة "مونتويا"، وسرعان ما تدرك "ليليانا" أن بوسعها التحكم فيه بالكامل. كانت أوقات الكاتب المفضلة بالماضي هي عندما يذهب لتناول الخمر مع "ليليانا"، وتحمل نوبات غضب أخيها "روبين"، الذي وجد شقيقته عارية مع الكاتب في حمَّام منزلهم!

كانت ضربات "روبين" عنيفة للغاية لدرجة أن الكاتب دخل المستشفى. في ذلك اليوم نفسه، عادت "ليليانا" لمنزلها من أول حفل مع جيل "أوليباريس".

غنت ورقصت لذلك التجمع من العجائز الذين لم ينسوا أبدًا ما حدث ذلك اليوم، ويتذكَّرون بولع كل ما دار يومها من أحداث.

اعتلت "ليليانا" طاولة وبدأت تتعرَّى من ملابسها، قبل أن يأتي "إلباتو" ليسحبها أمام أعين الجميع، وبعد وقت قصير، بعدما هدأ الرجل، عادت لتعتلي الطاولة ثانية لتقوم باستعراض أثبت لعديد من الناظرين أنها لا تشبع.

أضاف خبير في العلوم السياسية كان لُعابه يسيل على "ليليانا" أنها تمتلك "تأثير هوبز" على الرجال، فتعيدهم لحالتهم البدائية وتحولهم لمحبين عنيفين وبدائيين، تضطرم العاطفة بداخلهم. يجعلهم هذا منيعين ضد الخطر، وغير قادرين على مقاومة إثارة مطاردة المرأة التي استحوذت على قلوبهم!

يبدو الأمر كأنما هناك نيران دائمة الاشتعال فيما بين رُكبتي "ليليانا" وفخذيها. كانت ذات عينين لامعتين وخصر نحيل كالفتيات الصغيرات، وبطن تتموج كالبحر عندما تتنفس. أما عن جلدها اللامع وعنقها الطويل فحدِّث ولا حرج. كانت ذات يدين صغيرتين، تقرض أظفارها حتى تصل إلى الجلد الحسَّاس. هل ذكرت شعرها الناعم المستقيم الذي يصل لكتفيها لو قررت تركه ينمو؟ أما عيناها فلوزيتان، وعندما تفترق شفتاها الرفيعتان، لتطلب شيئًا من قائمة الطعام على سبيل المثال، كان صف أسنانها البيضاء البارزة يوحي بأنها تحصل دائمًا على ما تريد.

لم يكن لأي من هذا علاقة بجمالها غير القابل للمقاومة، باستثناء أنني لم أكن بمفردي، فعديد من الرجال لا يمكنهم مقاومته كذلك. لكن كان بوسع "ليليانا" وحدها جعلي أتساءل عن كيفية تقدير الجمال، فهو يمنح فوائد ومزايا لم يطلبها صاحبه، وغالبًا ما يتسبب في مُعاناة مالكيه، محولًا إياهم لغنيمة مدمرة للآخرين الذين يشتهون ما هو ملك لغيرهم. في الأعوام الاخيرة فكَّرت كثيراً في نوع الحب الذي يجعل رجلًا مثل "إلباتو بيرتِس" عبدًا لامرأة تصغره بعشرين عامًا. وعلى الرغم من أن موقفه ينفرني، فإنني لم أملك إلا أن أتساءل عمَّا يقيد رجلًا أكبر عمراً مثله بمثل هذه العلاقة الجافة القائمة على الانقياد، والتي تضطره لتلبية مثل تلك الطلبات المجنونة؛ كالعثور على قاتل مأجور للثأر لأخت عشيقته الصغرى. وهو ما فعله "إلباتو": عثر على قاتل محترف. في ثالث مرة حكت فيها "ليليانا" القصة على مسامعي قالت: "لم أحترمه بعدها لأنه لم يعتنِ بي. لم يكن من المفترض أن يدعني أقتل أحدهم!".

هناك فرق واحد فقط بيني وبين "إلباتو": "إلباتو" سقط في فخ "ليليانا" ودفع الثمن، بينما أنا لم أدفع. أنا لم أفز بها حتى!

الفصل السابع

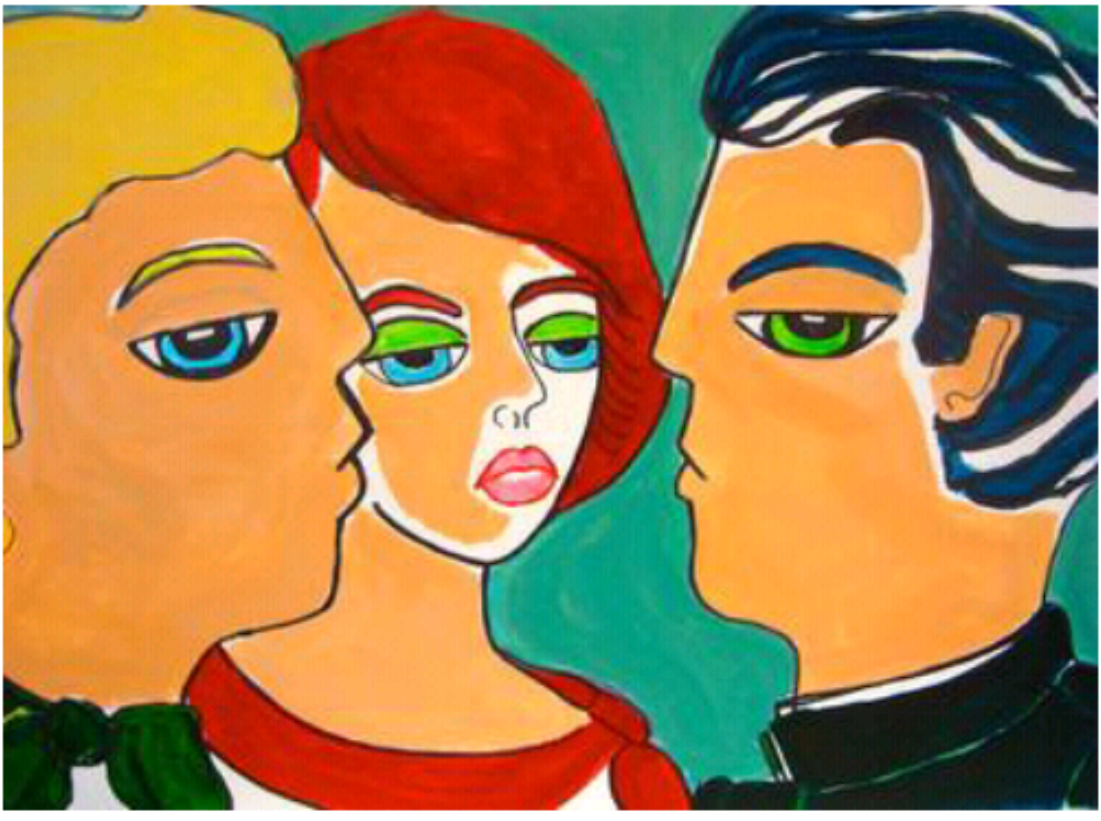

يجب أن يستمر بحثي عن "ليليانا" دون مساعدة من عائلتها، فبطرق عديدة، ابتعادي عن عائلة "مونتويا" كان غلطتي وحدي، فهو ثمن بسيط دفعته ثمنًا لبحثي عن "ليليانا".. رماني صديقي "روبين مونتويا" خارج المنزل بعدما وجد "ليليانا" معي في الحمَّام، بتنوُّرتها مرفوعة، وردائها الداخلي حول كعبيها! كان حذائي مُريعًا، وما زلت حتى اليوم أشعر بالخزي كلما فكرت كيف بدا حذائي القذر - وغير المربوط وقتها - رهيبًا. جرَّني "روبين" خارج الحمَّام والمنزل تحت وابل من اللكمات! فبالنسبة له، ما فعلته لا يمكن وصفه بكلمات.. عندما سمع أن "ليليانا" على علاقة بـ"إلباتو بيرتِس"، طردها من المنزل كذلك، ولامني على استغلال أخته وجعلها عُرضة للهجوم من أمثال "إلباتو".

سيعتبرني "روبين" دومًا أول حجر في طريق انحدار "ليليانا"، وأول ذكر يتخطى أسوارها.. عندما رأيته بالصدفة في مكتبة ما، توقعت منه مهاجمتي، لكن كل ما فعله وقتها أن أومأ برأسه.. أسأت فهم حركته، وظننت أنه يعرض هدنة، فسألته

عن أحواله.. أجابني:

- بخير.

- وماذا عن "ليليانا"؟

أجابني :

- لا أعرف، لقد أخرجتها من حياتي كما أخرجتك!

وهنا رأيت جذوة الكراهية القديمة تلتمع في عينيه، والجرح صعب الاندمال الذي تسببت فيه علاقتي بأخته.

انخرط "روبين مونتويا" في شجارات بسبب أخته منذ سن مبكرة، وظل يتشاجر حتى كبر بما فيه الكفاية ليدرك أنه ليس بوسعه التمسك بها أكثر من هذا!

تعلم هذا الدرس أثناء شجار بعد انتهاء المدرسة، مع زميل كان بوسعه لو أراد أن يحطم وجه "روبين" ويهشم ضلوعه.

تجمَّع الصبية الذين عرفوا ما كان على وشك الحدوث، استعداداً لمشاهدة قتال بلا قواعد ولا قيود، لتحديد أي من الغريمين هو الأقوى، وسيكون هذا القتال في ميدان صغير، حيث تتلاقى عدَّة شوارع معًا.

حركات غريمه الأولى أنبأت "روبين" أنه لن يكسب، فالفتى الآخر كان يزيد من مهاراته القتالية عن طريق تحدٍّي وهزيمة كل مَن تُسوِّل له نفسه أن يواجهه في هذا الميدان الصغير!

بالنسبة لـ"روبين"، كان هذا الاختبار بمثابة علامة تميز اليوم الذي توقف فيه عن أن يكون طفلًا، ليقتحم عالم البالغين.. فقد راوده فجأة شعور باقتراب موته، لأنه أدرك أن الفتى الذي تشاجر معه كان بوسعه أن يقتله! استقبل "روبين" أول ضربة في فمه دون أن يجفل، لكن الثانية جاءت في صدغه وجعلت رأسه يرنُّ، أما الثالثة فكانت في تفاحة آدم ومنعته من التنفس!

تتباعت الضربات دون رحمة أو هوادة، وبمجرد أن سقط "روبين" على الأرض حتى اعتلاه الفتى الآخر، استعدادًا لتسوية وجهه بأرضية الشارع!

هنا حدث شيء غير متوقع، كان الفتى يستعد للقيام بضربة كافية لإزالة أسنان"روبين" كلها، أو فتح رأسه بالمعنى الحرفي للكلمة، لكنه بدلًا من هذا ضرب الأرض بالقرب من وجه "روبين" بسنتيمتر واحد، ليتضح أنه كان مجرد تهديد.. قبل أن يقوم من مكانه، اختار الغريم ألا يوجه ضربة لصدر "روبين" المكشوف أمامه، بينما هو راقد في استسلام يبكي وسط التراب.

ساعد بعض المارَّة "روبين" للنهوض على قدميه.. هنا لاحظ "ليليانا" الواقفة على الرصيف تشاهده، وضاعفت رؤيته لها من آلامه.. خطت أخته الأخرى "دوروتيا" نحوه مع بعض صديقاتها للعودة به للمنزل.. أشعره اعتناء فتيات أصغر منه سنًّا به بالضآلة، وقل إحساسه بكونه بالغًا.

عادت الفتيات به للمنزل، حذرات من أن يتعثر في طريقه، ثم أرحنه على كرسي ضخم وثير قرب الباب. ظهرت "ليليانا" وهي تحمل طشت غسيل وماءً ساخنًا. لم ينسَ "روبين" أبدًا ما قالته له وهي تغسل جراحه.

كانت غاضبة من الفتى الذي ضربه، وأخبرته ألا يتشاجر مع أخيها، فـ"روبين" دائمًا ما يزعج معجبيها، لكنه ليس مسؤولًا عنها؛ تعرف "ليليانا" كيف تدافع عن نفسها جيدًا!

امتلأ جسد "روبين" بالرضوض. التهمه شعوره بالخزي، لكن على الرغم من جسده المحطَّم، فإنه لا يمكن مقارنته بنظرة اليأس التي ارتسمت على وجهه الممتلئ بالسحجات. عندما أمسكت "ليليانا" بخدَّيه المتورِّمين بين يديها ونظرت في عينيه مباشرة، بدا كأنها تمتص شبابه منه بكلماتها: "الفتى يعجبني يا "روبين"، لكن بعد ما فعله بك، لم يعد بوسعي الاقتراب منه، لكنني كُنتُ معجبة به فعلًا! تمامًا كما أُعجبت بفتية آخرين. هل ستحاكمني على إعجابي بالفتية الآخرين؟ فأنا معجبة بالكثيرين، معجبة بهم جدًّا".

هنا استوعب "روبين" أنه لم يعد بوسعه التمسك بشقيقته أكثر من ذلك. كانت "ليليانا" في الثالثة عشرة وقتها.

لم أكن قد سمعت عن عائلة "مونتويا" لبعض الوقت، ولكن تغيرَّ ذلك أثناء زيارتي لطبيب أسنان. ففي غرفة الاستراحة الخاصة بعيادته قرأت قصة عن أوسمة الشرف التي مُنحت للمراهقين الذين تمكنوا من تحدِّي إعاقتهم، وأحد الذين تم تكريمهم كان ابن "دوروتيا"، وظهر مع والديه في صورة مصاحبة للموضوع.

اسمه "آرتورو هيسلر مونتويا"، وبدا بالصورة طويلًا وهشًّا، وقد ضاعفت النظارات التي يرتديها لتساعده على التغلب على قصر نظره من حجم عينيه الحزينتين.

كان ذلك الشاب النحيل الهزيل موهوبًا بشدة في الرياضيات، على الرغم من أنهم ظنوا بأنه متأخر عقليًّا عندما كان طفلًا. كان والده، "آرنو هيسلر جوتيز" قد وُلِدَ في المكسيك، لكنه أدار شركة أدوية ألمانية، في حين مارست أمه "دوروتيا مونتويا جينير" دور الجنية الطيبة التي تحارب كل الصعاب من أجل ابنها.. ففي الوقت الذي كانت ترى فيه أن ابنها عبقري، لم يكن المدرسون والأطباء يرون فيه إلا حالة توحُّد، أو في أفضل الأحوال، حالة غير معتادة من متلازمة "داون".

بدت "دوروتيا" في طول زوجها نفسه في الصورة، لكن الابن بدا أطول من كليهما. كان لديه كتفان عريضتان، وذراعان طويلتان، وجبهة عريضة. وتحت فروة كثيفة من الشعر الأسود المصفف بعناية، برزت أذناه. نظر مباشرة نحو الكاميرا. لم يشبه "ألكاتراتشو" بأي شكل من الأشكال.

فكَّرت في ابن "دوروتيا" كشيء غريب لامع، فلا بد أن الأمر يُشبه أن يكون لديك وحش جميل في المنزل. اعتمدت على قدراتي الخداعية ككاتب، وحاولت معرفة مزيد عن "هيسلير مونتويا" من المؤسسة التي أعطتهم الجائزة.

رفضوا إعطائي عنوان منزل العائلة، لكنهم أعطوني رقم التليفون. أجابت

"دوروتيا" على المكالمة، فوضعت السماعة دون حديث. اتصلت ثانية بعد أسبوع، وفي تلك المرَّة أجابتني الخادمة، فطلبت منها التحدث مع سيدة المنزل، فسألتني عمَّن أكون.

أعطيتها اسمي وأسبابي للاتصال بعد كل تلك السنين. هذا سيعطي "دوروتيا" الفرصة للرفض أو الموافقة على طلبي لرؤيتها. بدا صوتها واضحًا ومسرورًا عندما ردت عليَّ.

- يا له من شرف يا"سيرانو"، ما الذي جعلك تتذكرنا؟

أخبرتها أن الفضل يرجع لابنها، وذكرت موضوع المجلة في عيادة طبيب الأسنان والمقالة وصورتهم.

- أنت فتى سيئ يا"سيرانو"، لقد اختفيت دون أن تودعنا حتى!

أجبتها:

- بلغت سلامي لـ"روبين" وقتها!

- لكنك لم تودعنا نحن يا "سيرانو"، هل ستأتي لزيارتي؟

أخبرتها أن هذا سبب اتصالي، فأعطتني عنوانًا، ويومًا، وساعة.. وفي اليوم الذي حددته وصلت في الموعد الذي كان بمنتصف النهار. كانت تقيم بمنزل ضخم في واحدة من أفضل المناطق بالمدينة.

كان بوسعي رؤية الغابات التي تحد المنزل من الشمال. دعتني "دوروتيا" للجلوس على أريكة بيضاء جلدية في الصالة. لم تعد تمت للسيدة الشابة التي أتذكرها بصلة، فقد صارت ربَّة بيت أنيقة الآن، لكن الفتاة الصغيرة كانت تظهر من وقت لآخر عندما تقول شيئًا مضحكًا، أو عندما تلتمع عيناها فجأة دون سبب ظاهر. ارتسمت تقطيبة على وجهها، وجعلتني أقصُّ عليها قصة المجلة ثانية، والدبلومة، وغرفة الانتظار بعيادة طبيب الأسنان الخاص بي.. أشدتُ بابنها، فأومأت برأسها وابتسمت. كانت قد وهبت نفسها لإنقاذه من عالم لا يفهمه على

حد قولها. إنقاذ ابنها ساعدها على استعادة إيمانها. سألتها عما إذا كانت مؤمنة.

- أنا كنيستي الخاصة.

لم تبدُ لي كلماتها منطقية، فليس هناك مكان للمؤمنين أو للكنائس في عائلة "مونتويا".

على أي حال، فإن الجينات، ومكتبة د. "مونتويا" المليئة بالكتب عن جمعية "اليعاقبة: أصدقاء الحرية والمساواة" أو The Jacobian ، وأسلافهم الملحدين، تفسِّر كل شيء متعلق بطباع تلك العائلة.

- لديَّ الكثير لأقوله لك، لكن لا يوجد ما نتحدث بشأنه.. لا يجدر بي أن أراك من الأصل بعد ما فعلته بأختي.

أجبتها:

- لم أفعل شيئًا لأختك!

- لم تنقذها يا "سيرانو".. هذا هو ما فعلته لها.. لم تقف بجانبها.

أجبتها:

- لم أكن ذا نفع لـ"ليليانا".

وهي كذبة بها لمحة من الحقيقة، فقد كانت "ليليانا" تثير رعبي. سألتني "دوروتيا":

- لكنك أتيت بحثًا عنها.. لماذا أتيت إذًا ما لم تكن تبحث عنها؟

عوضًا عن أن أجيبها، سألتها عن أحوالها.

- أرأيت؟ لقد حضرت لأنك تبحث عنها.. لأنك تريد الحديث عنها.. ترغب في التحدث عن "إلباتو" وكل شي، لكنني لا أرغب في الحديث عن أي من هذا.

لكن ما قصدته بكلمة "أي من هذا" هو ما تحدثت عنه بالتحديد، وما لم تكن

تريد التحدث عنه مختلف عمًا لم أكن أنا أريد الحديث عنه.. مقصدها كان الحب بين "إلباتو" و"ليليانا".. وبينما هي تتعمق في الموضوع فوجئت بالبهجة تظهر عليها.

- أعتقد أنهما كانا سعيدين حتى فقدت أختي طفلها الأول، وعندما فقدت الثاني، انتهى كل شيء.. لم يعد بوسعها النظر في عيني "إلباتو" حتى، ألم تخبرك؟ أبدًا؟ كانت غبية، فإخبارك كان ليصبح التصرُّف السليم من ناحيتها، لأن التفكير فيك جعلها تشعر بأنها أفضل حالًا. اعتادت أن تقول دومًا إن الأمور لم تنته بينكما بالكامل.. وأنكما من نصيب بعضكما البعض.. وإنه حتى لو فقدت كل شيء آخر، فستبقى أنت.. لكنك تركتها يا "سيرانو"، وهي تركتك ترحل.. يا له من غباء! لم أكن لأتركك ترحل أبدًا لو كنت مكانها.

سألتها عما إذا كان ما قالته بخصوص فقدان "ليليانا" لطفل حقيقيًا.

- اثنين!

سألتها متى حدث هذا، فأجباتني:

- عندما كانت مع "إلباتو".. في الشهر الثاني من حملها الأول، بينما فقدت الحمل الثاني في الشهر الرابع، وسار الأمر بشكل سيئ للغاية.. لم يعد هناك ما يمكن فعله لها الآن.

سألتها:

- هل كان حملًا غير مكتملٍ أم أجهضت نفسها؟

- لا تكن وضيعًا يا "سيرانو".. مستحيل أن تفعل واحدة من عائلتنا شيئًا كهذا!

سألتها عما قصدته بجملة "لم يعد هناك ما يمكن فعله لها الآن".

- لن يصبح بوسعها الحمل مرة أخرى.. حاولت لكنها لم تتمكن، والآن لن تتمكن من حمل طفل أبدًا.

تمكَّنت أخيراً من أن أسألها:

- أين "ليليانا" الآن؟

- لا أعرف.. ليس لديَّ فكرة.

كانت عيناها مليئتين بالدموع.. لمسني حزنها حتى الأعماق، لكن دموعها هذه أزعجتني.

اقترحت عليها أن نتحدث عن "ألكاتراتشو".

- "ألكاتراتشو"؟

حاولت تذكيرها:

- صديقك القديم "ألكاتراتشو".

- لم يكن لديَّ أي صديق بهذا الاسم يا "سيرانو".. ما معنى اسم "ألكاتراتشو" هذا أصلًا؟

أخبرتها أنها تسمية أخرى للقب "هندوراسي"، مثل كلمة "آزتيك" للمكسيكيين.

- أيمكنك إخباري عن "ألكاتراتشو"، عشيقك الهندوراسي؟

ضحكت في وجهي مُجيبة:

- أي عشيق يا "سيرانو"؟ ليس لديَّ أي عُشَّاق، أنا امرأة متزوجة.

لكنني أصررت:

- عشيقك عندما كنت مراهقة، "ألكاتراتشو"!

- لم يكن لديَّ عُشَّاق في مراهقتي.. ما الذي تتحدث عنه يا "سيرانو"؟ كُنتُ في العشرين من عمري عندما حظيت بأول عشيق، وهو الآن زوجي.. أي نوع من السجائر كُنتَ تدخنها؟

أخبرتها أنني أعرف كل شيء عن "ألكاتراتشو"، وأن لديَّ كل تفاصيل الحادث؛ التاريخ، وملف الشرطة، ونسخة التحقيق التي كتبها الضابط الذي تم تكليفه بالقضية كذلك.

- أي قضية يا "سيرانو"؟ أي تاريخ؟ أي ضابط؟

أغفلت الموضوع، وقد أدركت أن الزيارة انتهت بأسوأ طريقة ممكنة.. لكن "دوروتيا" أطالت في الحديث بشكل لا يحتمل، أرادت أن تريني المنزل، وماذا تفعل فيه.. في الطابق الأرضي كانت هناك الصالة التي جلسنا فيها، ثم قاعة أخرى، ثم غرفة طعام، ومطبخ بمخزن للخدم.. كانت غرفة الطعام تطل على غرفة صغيرة تمتلئ بالكتب من الأرضية حتى السقف.. أخبرتني أنها غرفة "آرنو".. داخل تلك الحجرة كانت هناك شاشة قابلة للطي من الهند.. أطل المطبخ على الشرفة، ويوجد حمَّام سباحة بالحديقة.

كان وراء الحديقة غابة.. عبرنا تلك الحديقة، وقرب حافة الغابة يوجد إسطبل خيول، وحلقة تدريب، وكوخ استراحة للضيوف.. اعتاد ابن "دوروتيا" أن يمتطي يوميًّا حصانًا يُدعى "بيريلمان".. رافقتني حول المباني وأخبرتني كل شيء ممكن عن منزلها بالتفصيل كأنما كُنتُ في رحلة سياحية.

أثناء عودتنا للمنزل تبادلنا الحديث عن ابنها الموهوب الذي مثل كل حياتها.. وعلى الرغم من أنها لم تقابل أباها أبدًا، فقد كانت متأكدة أن د. "مونتويا" قد مرَّر شيئًا من صفاته لابنها.. هنا كنا قد وصلنا للباب، فشكرتني على الزيارة.. غمزت بعينها وهي تمد يدها لتصافحني مودعة، وقبل أن تغلق الباب، غمزت ثانيةً.

عندما أراها في ذاكرتي، أراها تغمز كذلك.. حلمت بـ"دوروتيا" تلك الليلة وسجلت الحلم في مفكرتي: رأيتها تدخل بارًا قذرًا، لتخرج مع شاب كالح المنظر، لم يلبث أن أخذها لفندق حقير، خرجت منه وقد أصلحت مكياجها، وعادت للمنزل.

الفصل الثامن

اتصل بي الرَّفيق "فيرناندیس"، يريد معرفة عمَّا دار بينها وبين القائد "نيري"، فأخبرته أن حوارنا دار حول قضية كُنتُ أفكِّر في تحويلها لرواية.. أخبرني أن "نيري" قد ذهب لرؤية "إلباتو بيرتِس"، وقد أخبره أنه تحدث معي، وطلب منه بعض المال.

أراد الرَّفيق "فيرناندیس" أن يعرف ما تحدثنا بشأنه بالضبط، لكنني رفضت إخباره، فقصة "ألكاتراتشو" سر بيني وبين "ليليانا" (و"إلباتو" و"دوروتيا") وواضح أنني لست أهلًا للاحتفاظ بالسر.

لقد تركت "فيرناندیس" عُرضة للهجوم من شخصين على الأقل، "نيري"، و"أنتونيس" الذي يملكه.. لا بد أن "نيري" قد أخبر "أنتونيس" عن موضوع

حديثنا.. لا بد أنهما تساءلا عن سبب اهتمامي بتلك القضية بالذات، وأنهما يرتابان في الأمر.

"نيري" رجل شرطة بوسعه شم رائحة المال في الألغاز غير المحلولة، في حين كان "أنتونيس" سياسي بوسعه شم رائحة المآسي الإنسانية التي بوسعه استغلالها.

فكَّرت في كل هذا بينما تحدث الرَّفيق "فيرناندیس" عن صراع الأجيال الذي جعل "أنتونيس" يكره "إلباتو" بشدة. أثناء زيارة "إلباتو"، ذكر "نيري" أن "أنتونيس" هو مَن وصلني له.. خاف "إلباتو" من أن "أنتونيس" ربما يحضِّر لشيء ما، بينما "نيري" يتجسس له.

عندما أخبرني الرَّفيق "فيرناندیس" بهذا، أدركت أنني تماديت أكثر من اللازم، وأن الأمور ستخرج عن السيطرة. أصبحت في مواجهة ما يُطلق عليه الاستراتيجيون المحترفون "تبعات غير مقصودة".

كأنما كُنتَ تريد تفجير مصنع للأسلحة، لكنك بالخطأ فجرت مدرسة مليئة بالأطفال معه! أو كأنك تريد أن تعيد رشاقة الجسد لامرأة سمينة، فحولتها لمصابة بمرض فقدان الشهية العصبي.

عن طريق التحقيق في موت "ألكاتراتشو"، أثرت اهتمام شرطي وسياسي مبتزين بقضية كانت قد نُسيت. السياسي يكره "إلباتو" كما أكرهه أنا، لكن الفارق بيننا أن السياسي يريد أن يتأكد من أن كراهيته هذه سيكون لها تأثير.

"إلباتو" مجرد رجل مسعور على حد قول الرَّفيق "فيرناندیس"، ولهذا رغب في معرفة ما دار بيني وبين "نيري" من حديث. استطعت أن أستشف أن "إلباتو" قد أبقى سرَّنا الأكبر والمتعلق بـ"ألكاتراتشو" دون الرَّفيق "فيرناندیس"، وكذلك "فيرناندیس" لم يخبر "إلباتو" أنه هو من عرَّفني على "أنتونيس".

قال "فيرناندیس" بخصوص هذا:

- أعترف أنني أخطأت خطأً كبيراً عندما عرَّفتك على "أنتونيس". كان صديقًا لـ"إلباتو" بالماضي، لكن تلك الصداقة لم تلبث أن انقلبت لعداوة من أسوأ نوع يمكنك أن تتخيله.. بدأ "أنتونيس" طريقه السياسي عن طريق "إلباتو"، ثم تخطاه ليستولى على مهنة أرادها "إلباتو" لنفسه. ظننت الموضوع مجرد خلاف طفيف، لكن اتضح أنه أكبر من ذلك بكثير.

لا أطلب منك مساعدتي للتعامل مع الأمر، لكن أيمكنك مساعدتي في توضيح الأمور قليلًا لـ"إلباتو"؟ أعرف كم تحتقره، ولست وحدك في هذا، لكن "إلباتو" لم يعد سوى صورة عن الرجل الذي كان عليه مُسبقًا.. لا يمكن أن تصبح أحواله أسوأ مما هو عليه الآن.. كأنه صار دُمية.. كارثة.

لا أنكر أن ما ذكره الرَّفيق قد أسعدني، لكنه لم يقنعني، لكن الخاطر المغري لرؤية أي انحطاط وصل له حال "إلباتو بيرتِس" هو ما أقنعني.. فلتسمه نوعًا من مزاج مريض وكريه يستمتع ببؤس الآخرين.

وافقت على مقابلة "إلباتو" في مجمع "سانبورن" في شارع "سان أنتونيو"، قرب منزلي.. وأثناء دخوله، نظر من أمامه ومن خلفه كما لو كان يعتقد أن أحدهم يتبعه.. كنت قد وصفت "إلباتو" من قبل: أسنانه صفراء، وأنفه مسطح، بينما هناك بقعة صلعاء موجودة برأسه، تكشف عن فروة رأس شاحبة ببُقع نمش سوداء، في حين كان كتفاه متهدلتين.. وجعله كرشه يبدو كما لو كان حاملًا في الشهر السابع. حمل بيده أحد كتبي، كان قد اشتراه للتَّوِّ، وكان لا يزال غلافه البلاستيكي عليه.

أرادني أن أكتب له إهداءً في ذكرى أوقات الماضي الجميلة.. لم أستطع تذكُّر أوقاتًا سعيدة معه، فوقَّعت بـ"في ذكرى الماضي الجميل"، لكن ما قصدته حقًا هو الآن وهو مجرد حطام رجل!

لو كان "أنتونيس" هنا لاستمتع بهذا، وعلى الرغم من أنني لست "أنتونيس"، لكنني استمتعت على أي حال.. ثم بدأت المحادثة، فاعتذرت عن اجتذاب انتباه "نيري" و"أنتونيس" لـ"أعمالنا"، وكلمة أعمالنا هذه هي ما أشير به لعملية قتل

"ألكاتراتشو"!

أخبرته عن مقابلتي مع "نيري"، والأسئلة التي سألتها، ولم أقل ما تذكره "نيري" عن جريمة القتل.

قلت له إنني حين تحدثت مع "نيري"، لم تكن ذاكرته جيدة بخصوص الشخص الذي اصطحب الفتاة لمشاهدة الجثة. قلت له إن "نيري" ربما حاول أن يتذكَّر، لكن الشيء الوحيد الذي علق بذاكرته كان طلب بعض النقود من الرجل في ذكرى الأوقات الطيبة. قال "إلباتو" (اخترقت كلماته حاجز قدرتي على التسامح معه):

- لم يكن هناك داعٍ لأن يتذكَّر "نيري" أي شيء.. فأنا أتذكَّر ما حدث بالكامل!

سألته عمَّا إذا كان يعرف "نيري"، أجابني:

- كنت أدفع له ليصمت منذ سنين مضت!

صُعقت مما سمعته. لم يخفَ رد فعلي على "إلباتو"، فبدا عليه هو الآخر أنه يحاول التسامح معي، قال:

- سأخبرك بشيء يا سعادة الكاتب، سأخبرك عمَّا أعرفه عن "عملنا".. هل أنت مستعد لتسمع؟

أومأتُ برأسي مُرتبكًا.. هل كان يقصد بطريقته الغريبة في التحدث معي وتلقيبي بـ"سعادة الكاتب"، وضعي في مكاني المناسب؟ فجأة صار "إلباتو" هو المتحكم، وليس أنا.

- أول شيء يا سعادة الكاتب، أنا لم أمر بأي شيء بخصوص "عملنا".. تلقيت أمرًا غريبًا من "ليليانا"، وتجاهلته في البدء عوضًا عن البدء في جدال. فيما بعد فعلت أشياء لتفادي الجدال.. وكما يقول المثل، "من الأفضل أن تعطي وعدًا بدلًا من أن تندم لاحقًا"، أو شيء كهذا.

عرفت مَن يعملون بالحكومة.. كان النائب العام، فليرحمه الرَّبُّ، صديقًا لي..

أعطى "أنتونيس"، والذي كان وقتها من أفضل تلاميذي، وظيفة في مكتبه، لهذا طلبت من "أنتونيس" أن يقوم بخدمة لي، بحيث يبدو الأمر كأنه فعلها من تلقاء نفسه.. طلبت منه التحقق من أفعال "ألكاتراتشو" المزعومة، ليرى إذا ما كانت هناك أي حقيقة في التفاصيل التي أخبرتني بها "ليليانا" عنه.

كانت التفاصيل كلها غير واضحة باستثناء عنوان بيت الدعارة الذي كان في المكان نفسه الذي وصفته "ليليانا" في مقاطعة "سان رفاييل".. سألني "أنتونيس" ما الذي أتوقع وجوده في هذا المكان، وقد أخطأت وقتها بإخباره أنه أمر شخصي، يتعلق بعائلة شوه أحدهم سمعتها ويريدون الانتقام.. وقد فهمني متعمدًا بشكل خاطئ.

من بين أشياء أخرى، قرَّر أنني ما دمت لم أطلب منه فعل شيء بشكل علني، فأنا بشكل ضمني أطلب منه أن يفعله! كل ما أردته منه أن يقوم ببعض التحريات لا أكثر.. بعد شهر سألته عما إذا كان قد عرف أي معلومة.. سؤال بسيط مباشر، لم أطلب منه فعل أي شيء!

أخبرني أن "ألكاتراتشو" قد قُتل ليلتها، قال:

- تمت المهمة!

وطلب منِّي مزيدًا من التعليمات.

- ليست هناك أي تعليمات يا "أنتونيس"! أنا لم أعطك أي تعليمات من الأصل!

لكن الوغد أجابني:

- بل فعلت، ضمنيًّا!

أجبته:

- ما الذي فعلته أيها الغبي؟

كان هو مَن أعطى الأوامر بقتل "ألكاتراتشو".

جعل أحدهم يحضر بعض الصور لي ليهدئني.. أو ليثير جنوني بالأحرى.. أخذت الصور لـ"ليليانا" في تلك الليلة!

توقف بطريقة مسرحية، سألته:

- وماذا كان رد فعلها عندما رأت الصور؟

- رأيت دموع الغضب في عينيها.

سألته إذا كانت "ليليانا" قد صدقته.. أجابني متلعثمًا:

- صدقتني.

سألته عما إذا كانت قد طلبت منه أخذها لترى الجثة على الرغم من تصديقها إيَّاه.

- لا يا سيدي الكاتب، هل جُننت؟ مَن أخبرك بهذا؟

أجبته بأن "ليليانا" هي من أخبرتني!

- هل كانت مخمورة؟ لو كانت كذلك فستقول هذا وما هو أكثر.. كثيراً ما كانت تتمادى فتقول إنها أشرفت على عملية الإعدام بنفسها! مجرد هراء يا سيدي الكاتب، لا تعطه أي اهتمام.. فليس هذا ما حدث!

بالغ في ارتشاف قهوته فبدا وكأنه يبتلع ديكًا روميًا.. أراح نفسه في كرسيه، بل أن يكمل:

- "ليليانا" كذبت يا سيدي الكاتب.. "ليليانا" التي عرفناها كانت تكذب.. كانت مستعدة للقتل حتي تصبح امرأة فاتنة قوية يحترمها الجميع. لماذا تظنها تعرفت عليَّ إذًا؟ لكنه لم يحدث.. علاقتنا كانت أبسط من هذا بكثير، مبنية على الاحتياج.. أخرجتها من منزلها، أعطيتها نقودًا، أريتها العالم، ثم ملَّت هي منِّي وذهبت في طريقها. لو كنا فعلًا قد خططنا لجريمة قتل معًا، جريمة قتل تولد من رحم حبنا، إذًا لم أكن لأتركها ترحل أبدًا! كانت ستظل سجينتي حتى الآن،

فـ"ليليانا" هي أفضل شيء حدث لي!

مد "إلباتو" يده نحو جيبه الخلفي وأخرج محفظة منتفخة، ومن جيب سري فيها استخرج صورة مخفية تحت طبقات من الورق الشفَّاف.. أراني صورة أبيض وأسود تظهر فيها "ليليانا" وهي تضع ذراعيها حوله.

كان ينظر مباشرة نحو الكاميرا مبتسمًا، شاعرًا بالرضا، بينما هي تُقبِّل أُذنيه بفخر لاعبة تنس تقبل الكأس الذي فازت به في بطولة "ويمبلدون"، استطرد:

- هذا هو حالنا عندما كنا معًا.. انظر كيف كنت سعيدًا.. السعادة على وجهي.

كان نموذجًا مثاليًا للرضا في تلك الصورة.. استطرد قائلًا:

- كنا على ذلك الحال ونحن معًا.. وما زلت أشعر بالسعادة كلما تذكَّرت تلك الأوقات.. الصورة تحكي كل شيء.. لهذا توقَّف عن نبش أسرار الماضي يا سيدي الكاتب!

كانت لدى "إلباتو" موهبة تشويه الكليشيهات، لكنها لا تضاهي موهبة الرَّفيق "فيرناندیس"، الذي يعتلي عرش التشويه هذا (القوة تحول الأذكياء لحمقى يا ريس، وتثير جنون الحمقى).

سألت "إلباتو" كيف يمكن لـ"نيري" أن يفعل كل هذا، فأجابني:

- "نيري" كان دليلي في تلك المغامرة البائسة.. أخذني لرؤية "ألكاتراتشو" في ليلة مقتله.

هنا سألته ثانيةً عما لو كانت "ليليانا" قد ذهبت معه.

- أخبرتك من قبل أن "ليليانا" تكذب أحيانًا يا سيدي الكاتب، فهي تحب إعطاء نفسها أهمية أكبر مما هي عليها بالفعل.

تركت سؤال "ليليانا" جانبًا وسألته عما لو كان قد رأى جسد "ألكاتراتشو" في بيت الدعارة تلك الليلة.

- لم أجرؤ على فعلها، لكنني كُنتُ هناك بصحبة "نيري" و"أنتونيس".

قال "صحبة"، لكنه قصد "حمايتهم". سألته عما إذا كان "نيري" الذي يتحدث عنه هو "نيري" نفسه الذي أعرفه.. أجاب:

- هو نفسه.. و"أنتونيس" الذي تعرفه كذلك، وهو الوغد الذي أرسل "نيري" لرؤيتي. كان قد صار عدوي في ذلك الوقت يا سيدي الكاتب. ذلك الحقير "أنتونيس" كان يعاديني. أخذ ذلك الحقير "نيري" بعض الصور التي استعملها لاحقًا لابتزازي.

لم أصدق نصف ما قاله "إلباتو"، والأكثر من هذا، لم أصدق افتراضاته التي ترتكز عليها قصته. أعتقد أن الفشل وسوء الحظ اللذين لازماه هما ما جعلاه يندم، لكن ما قاله يجعل ما فعله واضحًا.. لم يعطِ "أنتونيس" تعليمات واضحة، لكنه أخبره أن يتصرف بطريقة تعطي "إلباتو" الفرصة لإنكار صلته بكل شيء لو سارت الأمور بشكل خاطئ.. لكن المعضلة واللغز في قصته، واللذين تليا هذا الجزء، لم يكونا واضحين للغاية.. هناك احتمالان:

الاحتمال الأول: إن "أنتونيس" قام بتنفيذ طلب "إلباتو"، فقام بقتل "ألكاتراتشو"، وأخبر "إلباتو" أنه نفذ التعليمات.. ثم، للتأكد من وجود شهود، جعل "نيري" يصاحب "إلباتو" ورفيقته لمكان الجريمة ليأخذ بعض الصور.

الاحتمال الثاني: لم يتصرف "أنتونيس" كما طلب منه "إلباتو".. لكنه وجد على مكتبه تقريراً عن رجل ميت، وبقايا جثة هذا الرجل تصلح لتكون جثة "ألكاتراتشو"، فاستخدم تلك الجثة بديلًا لجثة "ألكاتراتشو"، وأخبر "إلباتو" أن المهمة قد نُفِّذت!

تأكد من وجود شهود للإدلاء بكون "إلباتو" هو من أعدَّ لتلك الجريمة من خلال "نيري"، وهو شرطي مبتدئ صاحب "إلباتو" ورفيقته لمكان الجريمة وأخذ لهم بعض الصور وهم ينظرون نحو الجثة.

كلتا الفرضيتان تغيرَّ حبكة القصة وتجعل "إلباتو" مدينًا بالفضل لـ"أنتونيس"..

وأتى اليوم الذي جعل فيه الثاني، الذي كان تلميذًا، مدرسه يدفع الثمن.. بدلًا من أن يكون رجلًا باحثًا عن الانتقام لشرف أخت عشيقته، سرعان ما يصبح "إلباتو" دُمية يتحكم "أنتونيس" في خيوطها.

لم يكن ما أثار اهتمامي في نسخة "إلباتو" من القصة هو تبرئته لنفسه، لكن كم الغم الذي سيطر عليه وهو يصف تلك اللحظات السوداء.. ادِّعاء "إلباتو" أن ما حدث لم يكن خطأه لم يصدمني كثيراً كمحاولة له للهرب من اللوم، لكنني شعرت كذلك بقدر كبير من اليأس شعر به رجل تخلَّت عنه عشيقته.

في خضم آلام اليأس العاطفية هذه، حاول إثبات أنه ذلك الرجل القوي الحازم الذي يتظاهر بأنه عليه، لكنه ليس كذلك.. الأسرار التي أفشاها أمامي في "سانبورن" تكشف أنه رجل محطم وليس ذلك المبتهج الذي يرى نفسه محرض قوي الأعصاب لجريمة قتل!

حبه لـ"ليليانا" دفعه ليقول إن عقاب جريمة - لا يقدر على تنفيذها بنفسه - يجب أن يكون الإعدام.. لم يكن سوى مجموعة متنوعة من الخصال السيئة، مجرد رجل مفسد يظن أن بوسعه امتلاك رخصة للقتل، لكنه لم يستطع امتلاكها.. ومثل "ماكبث"، غرق في الأعماق الأخلاقية لرجل عديم الاخلاق؛ قاتل تمكن من سرقة النوم من عينيه.. لكون "أنتونيس"، وهو الرجل عديم الإنسانية الحقيقي هنا، متواطئ بالموضوع.. لكن الحياة تستمر على أي حال.

أعتقد أن بوسعي جعل حياة "إلباتو" أسهل بإخباره ما قاله "نيري" لي: أن "أنتونيس" خدعه بجريمة مفبركة.. لأن "ألكاتراتشو" أصلًا قُتل لكونه في المكان الخطأ في الوقت الخطأ، وليس بسبب طلب "إلباتو" من "أنتونيس"، تلميذه المفضل وربيبه، ومقلده وعدوه في الوقت نفسه.

"ألكاتراتشو" مات لأن مجموعة من ضبَّاط الشرطة الفاسدين أرادوا التخلص من الشهود والتنظيف وراء أنفسهم بعد جريمة قتل من الممكن أن تجلب لهم المشاكل.. لكنني لم أخبره بشيء.. فلو كانت تلك المعرفة ستزيح حملًا عن كاهل أحدهم، فلا أريد أن يكون هذا الأحد هو "إلباتو".

أمضيت عدَّة أيام أتصفَّح الكتب والسجلات المتعلقة بفترة قبيحة من تاريخ "مكسيكو سيتي" كُنتُ أفضل لو أنساها. كانت فترة تم توثيقها جيدًا وتمتلئ بفساد الشرطة، والعنف المبالغ فيه، وسوء الإدارة.. فترة امتلأت فيها قوات تطبيق القانون بالفاسدين بين صفوفها. وقد قامت مجموعة من علماء الأنثروبولوجي، والتاريخ، بالإضافة لبعض المواطنين المهتمين، بتدوين ملاحظاتهم عن تلك الفترة، ولكن للأسف طاردهم وانتهك حقوقهم نظام اعتمد على الإعدامات بالجملة لحفظ النظام. وكان يتم تطويع القانون لتنفيذ رغبات ذوي النفوذ الذين أرادوا تصفية أحقادهم في زنازين مخفر الشرطة!

سرعان ما تركت هذا البحث، فقد اقتنعت أن نسخة "نيري" من الأحداث أقرب للحقيقة من نسخة "إلباتو"، كما أنها أبسط، وتتوافق أكثر مع الزمن الذي حدثت فيه.. فقط تصادف وجود "ألكاتراتشو" في طريق لعبة صيد كبرى.

الفصل التاسع

"دوروتيا" هي أصغر أبناء عائلة "مونتويا"، بينما أكبرهم هو "آنجيل"، الذي وُلِدَ عام 1940، وهو الآن طبيب مثل والده.. ثانيهم اسمها "ماتيلدا"، من مواليد 1941، وتعمل ممرضة كوالدتها.. ثالثهم "آرسيليا"، والتي ماتت أثناء طفولتها.

أما الرابعة فقد سُميت "آرسيليا" هي الأخرى لتستبدل تلك التي ماتت.. الخامس هو "أنتونيو"، والذي وُلِدَ في 1943 وكان مصابًا بتأخر عقلي، وتوفي عام 1945، أمَّا السادسة التي سميت "ريجينا"، والمولودة عام 1946، فقد حظيت بزواجين

جيدين.. وبالنسبة للسابعة، فاسمها "مارجريتا"، وقد ولدت عام 1948، وماتت أثناء طفولتها.. الثامن هو "سيجيفريدو"، من مواليد 1950، ويعمل كيميائيًّا وهاجر لـ"كولون".. التاسع هو صديقي "روبين"، والمولود علم 1952، وقد شق طريقه في مجال المسرح.. العاشر اسمه "ريكاردو"، وقد ولد عام 1954، وهو توأم "ليليانا" الذي مات في رحلة حج لـ"تشالما".

أما الابنة الحادية عشرة فهي "ليليانا"، البطلة الرئيسية لهذه القصة!

الثاني عشر اسمه "ثيودورو"، من مواليد 1955، وقد أصبح عالماً في الأنثروبولوجيا ويعيش مع هنود "المازاتيكو".. ثم مرَّت خمسة أعوام على عائلة "مونتويا" قبل أن تولد "مارجريتا"، الابنة الثالثة عشرة، في عام 1960، لتستبدل "مارجريتا" التي ماتت قبلًا.

ثم يأتي دور رقم أربعة عشر، "دوروتيا"، عام 1961، والتي لها دورها في هذه القصة كذلك.. عندما كانت "دوروتيا" في الثانية من عمرها مات الأب د. "مونتويا" جراء سكتة دماغية.. كانت "ليليانا" وقتها في التاسعة، بينما أنا و"روبين" في الحادية عشرة.

لم أقم في الواقع باتخاذ قرار حاسم.. طلبت فقط من الرَّفيق "فيرناندیس" أن يرسل أحدهم ليتحرى أمر "دوروتيا".. أرسل لي كارت عمل مكتوبًا عليه:

"تحقيقات 360

مالاكيز "عين الرب"

والمسماة على اسم سفر "مالاكيز"، أحد أسفار العهد القديم".

تقترح الـ360 طريقة تجسس التي تضمن القدرة على التجسس في كل الاتجاهات وبكل الطرق الممكنة: مراقبة جسدية، ومراقبة تليفونية، وتجسس شبكي، وتسجيلات فيديو داخلية وخارجية بالمنزل وبمقر العمل.

سألني:

- كم نوعًا من التجسس تريد؟

سألته:

- هل هناك أكثر من نوع من التجسس؟

سؤال:

- هل ما تريد معرفته داخلي أم خارجي؟

سحرتني طريقته في استخدام معرفته.. لكن كلمة "داخلي" هذه أثارت أعصابي، فأنا جاسوس ذو ضمير.. أجبته بأنني أريد الخارجية فقط.

سؤال:

- مراقبة؟

وافقت على المراقبة.

- بصور أم تفضل بالفيديو؟

وافقتُ على الاثنين، الصور والفيديو.

- مراقبة التليفون كذلك؟

لم أوافق على مراقبة التليفون.. مجرد ذكرها جعلني أنكمش.. هل يجعلني هذا جاسوسًا ذا ضمير؟

- أنشطة أو أماكن معينة؟

هنا اضطررت للاعتراف بأنني في الحقيقة لستُ أبحث عن "دوروتيا"، وإنما عن أختها.

- اسم الأخت؟

عندما انتهى "مالاكيز" من انتزاع كل المعلومات الممكنة منِّي عن الشخص الذي أبحث عنه، أدركت أنني عرفت كثيراً عن "دوروتيا"، دون امتلاك أقل معلومة يمكن أن تساعدني في معرفة مكان "ليليانا".. هذا هو ما أريد من "مالاكيز" أن يعرفه.. أريده أن يفعل من أجلي الأشياء التي كُنتُ أرجئ فعلها بنفسي.. لم أستطع أن أخبره أن ما يهمني حقًّا هو العثور على "ليليانا".

أخبرني الرَّفيق "فيرناندیس" أن "مالاكيز" هذا لا يزال مبتدئًا في مجاله، والمتوقع منه أن يقع في الأخطاء التي يقع فيها المبتدئون.. لكن الرَّفيق اعترف أنه لا يعرف أحد أفضل من "مالاكيز" في هذا الموضوع.. براعة "مالاكيز" ترجع في أغلبها للتجسس.. وكان الرَّفيق هو أول من أخبرني أن مراقبة "مالاكيز" للتليفون تساعد على معرفة كثير من المعلومات المرغوبة.

الغريب أن اعتراف الرَّفيق بقلَّة خبرة "مالاكيز" زادت من ثقتي فيه.. وعلى الرغم من كوني لم أطلب منه القيام بمراقبة التليفون، فإنه لم يُبالِ بتعليماتي، فقام بمراقبة تليفون "دوروتيا" على أي حال، وعن طريق هذا عرف أن "ليليانا" تتصل بها كل أسبوع.. وعندما أخبرني بما فعله قمت بتأنيبه، وإهانته، وكدت أقوم بضربه، لكنني وافقت على الاستماع للتسجيل السري.. دارت المحادثة بعد أيام من زيارتي لـ"دوروتيا".. وعلى التليفون قالت: "عشيقك القديم ظهر ليثير المتاعب فيما يبدو".

وهنا ظهر صوت مطابق لصوت "ليليانا" من الجهة الأخرى للتليفون يقول: "كان مقدرًا له الرجوع!".

سألني "مالاكيز" عمَّا إذا كُنتُ قادرًا على تمييز الصوت الثاني وإن كان صوت من أبحث عنها، "ليليانا مونتويا".. أجبته أن: "نعم!"، فسألني عمَّا إذا كُنتُ أريد حفظ الشريط.. صحيح أنني لم أطلبه، لكنه سيعطيني إياه دون أي تكلفة إضافية. وافقت ثانية. سألني عمَّا إذا كُنتُ أريده أن يستمر في مراقبة التليفون، وهنا استعدت وساوسي ومخاوفي بخصوص التجسس، فأجبته: "لا".

حفظ جهاز تسجيل "مالاكيز" هذا الحوار.

- حبيبك القديم عاد لمطاردتك.

- أي واحد؟

- المعتاد.

- كم هذا لطيف.. كُنتُ أعرف أنه سيعود، وكيف حاله؟

- صار عجوزًا هزيلًا.

- المسكين، ومتى عاد؟

- منذ ثلاثة أسابيع.

- ولماذا لم تخبريني في وقتها؟

- هذه هي خامس مرّة أخبرك فيها. لماذا لا تكتبين ملاحظات!

- أكره تدوين الملاحظات، متى ستأتين؟

- في الشهر المقبل.

- هل ستحضرين ما اتفقنا عليه؟

- ما اتفقنا عليه ممنوع!

- لا تقلقي بشأن ما هو ممنوع يا "دوروتيا".. الناس هنا مجانين، والأسوأ أنهم يظنونني أنا المجنونة!

أظهرت المكالمة المسجلة اتصال موبايل "دوروتيا" بمصحة نفسية في "ساناتوريو ميراندا"، وهو المستشفى الذي يظنون فيه أن "ليليانا" مجنونة. احتاج الأمر منِّي إلى شهر كامل وثلاث محاولات متلكئة منفصلة للوصول "لكاونتر" المصحة النفسية، وعندما أقول "محاولة"، فأنا أقصد أنني وقفت بسيارتي في جراج المستشفى ثلاث مرّات، قبل أن أُغيرِّ رأيي بصدد الدخول.. أخيراً، أجبرتُ

نفسي على الدخول! المرأة التي اعتنت بجناح الأمراض النفسية كانت شقراء تشبه الأطفال، ذات عينين لامعتين كأنما تخفي سرًّا. بدا لي أنها تعرفني، وتعرف لماذا أتيت، وتعرف كل الأكاذيب التي جهزت نفسي لقولها .

أحب المستشفيات التي لا يزال فيها أماكن مفتوحة تمتلئ بالأشجار. في مستشفى "ساناتوريو ميراندا" هذا كان هناك كثير من أشجار "الكينا"، والمروج الشاسعة، وكانت هناك كذلك ممرَّات بين المباني التي خصص منها واحد لكل قسم بالمستشفى. استلقت على الأرض مجموعة من القطط الضخمة لتأخذ غفوة تحت أشعَّة الشمس. لم أسمع عن مستشفى آخر به كل هذا العدد من القطط! هنا يقومون بواجباتهم من صيد الفئران، ومطاردة الحشرات، وبالتأكيد ستنضم الطيور لقائمة الطعام.

مشاعري مختلطة تجاه القطط، فأنا أحسدهم على ثقتهم بأنفسهم ونظرتهم الثابتة. لو كانت لديَّ تلك الخصال، لم أكن سأرتبك وأتأتأ كما أفعل الآن. سألت عن المريضة المدعوة "مونتويا"، وقلت إنني قريب لها.

تمنيت لو كُنتُ قطًّا فعلًا لحظتها لأتمكن من لحس شاربي متلذذًا وأنا أتأمل تلك الشقراء الباسمة الضئيلة الجسد، والتي بادلتني النظر بعينيها الزرقاوين اللامعتين اللتين أطلَّتا من وراء نظاراتها ذات الإطار العسلي المنقوش. قالت إن المريضة التي أسأل عنها في "باحة 1"، سألتني إذا كُنتُ أعرف الطريق، ودون أن تنتظر إجابتي قالت إنني سأضطر للرجوع من الطريق الذي أتيت منه، ثم سأتجه لليسار في ممشى من الطوب الأحمر عليه علامة "باحة 1"، حتى أصل لباب، حيث سأجد فتاة أخرى تجلس خلف "كاونتر" آخر كالذي تجلس عليه هذا. سأكرر طلبي للفتاة التي تجلس هناك. عُدتُ للطريق الذي أتيت منه، حتى وصلت لعلامة "باحة 1" هذه، التي تذكَّرت رؤيتها أثناء دخولي.. وعلى تلك العلامة كان هناك سهم يشير نحو طريق ممتد بطول ممر يمر بجانب جدار، سرعان ما يفسح المجال لسور معدني ينتهي عند جدار عالٍ من الطوب، بأبراج حراسة تبدو كالصناديق، تنتصب على الأرض عند حافة الأراضي التابعة للمستشفى.

لا توجد بوَّابة بالمكان، لكن من خلال الفجوات المستطيلة بين أسلاك السور المتقاطعة كان بوسعي رؤية حدائق ذابلة ومتاهة من الممرات الإسمنتية المصممة عل شكل حرف (S) اللاتيني.. وكان هناك عديد من المرضى المستلقين في الشمس، أو يتمشون حول المكان. قليل منهم كان بمفرده، لكن معظمهم صحبتهم ممرضاتهم. انعطفت بعض الممرات نحو الأماكن التي يجلس بها المرضى ذوو الكراسي المتحركة. اعتقدت أنني رأيت "ليليانا" على كرسي منها، تصاحبها ممرضة ذات صدر ضخم، ووجه بلا تعبيرات، بينما "ليليانا" تُحدِّق في الجدار الذي يحيط بالمستشفى. كان شعرها يصل لكتفيها. هبَّت نسمة خفيفة من الهواء أطارت خصلة منه ليغطي جبهتها.

بدا أنفها مستقيمًا وحادًّا، وخدَّاها شاحبين، أما جبهتها فبدت عريضة إما بسبب شعرها الذي تساقط، وإما بسبب نفحة من الرياح تهب فتطير شعرها عن صدغها.

كان ظهرها منتصبًا كظهر الكرسي المتحرك الذي تجلس عليه، وقد انتصب كلٌّ من عنقها وعمودها الفقري غير مبالين بقيود الكرسي، بينما بدا فخذاها وركبتاها مستديرين ومشدودين تحت رداء المستشفى الأبيض، على حين بدت ساقاها البنيتان ناعمتين، مغسولتين، وقد تم ترطيبهما للتَّوِّ. شعرت برعشة من الإثارة لمرأى جلدها العاري.

في تلك اللحظة، نظرت "ليليانا" نحو السور في المكان الذي أقف عنده، كأنما جذبتها دفقة كهربية.. تمايل رأسها كأنها طائر شعر بالذعر.. وحرَّكت يدها كأنها زعنفة كلب بحر تجاهي وقالت:

- أهذا أنت؟

أكيد هذا أنا، لكنني لست واثقًا أنها هي. والأكثر أهمية، كيف يمكن أن يكون أحدهم متأكدًا من شخصية الآخر عبر مسافة خمسين قدمًا التي تفصل الطريق الذي تسير "ليليانا" فيه عن السور المعدني، حيث أقف أنا؟

مرَّ كثير من الأفكار الغريبة برأسي.. ذكَّرتني تلويحتها المُكبَّلة هذه بزوجة أحد خلفاء "إلباتو بيرتِس".. عندما سمعت أن زوجها على علاقة بـ"ليليانا"، رمت المرأة التي ثار جنونها نفسها من فوق صخرة غير بعيدة عن الجرف الذي يقوم منه غواصو "لا كويرادا" في "أكابولكو" بالقفز نحو المياه. نسخة أخرى يتم حكيها من القصة يقولون فيها إن قفزتها كانت من أعلى مكان بلعبة القطار السريع في حديقة "شابولتيبيك" الترفيهية.

في وصف أكثر دقة للحدث، لقيت المرأة نهايتها عندما قذفت بنفسها من نافذة شقة في مجمع "نونوالكو تلاتيلولكو" السكني، لتلتقي بالأرض على قضبان السكة الحديد، قرب المكان الذي قال فيه "إشكا ثينفويجوس" في رواية الكاتب المكسيكي الشهير "كارلوس فوينتس": "هنا حيث قُدِّر لنا أن نعيش".

عُدتُ من حيث أتيت "للكاونتر" الذي جلست خلفه الدُّمية الشقراء، التي أعطتني تعليمات جديدة قادتني خلف سور "باحة 1".. تبعت الطريق حتى وصلت لمكان "ليليانا". في البداية، رأيت فخذيها المشدودتين أسفل ردائها، وجلدها الحريري من عند الركبتين لأسفل، ثم رأيت قدميها الحافيتين، المنحنيتين كأنهما قوسان، وكعبيهما الممتلئين، وباطنهما الأصفرين. تألق ظفر إصبع قدمها الكبير الناعم بطلاء أظافر أحمر كالتوت. أثارت رؤية ظفر إصبع قدمها المطلي داخلي رغبة شبه قاتلة في تقبيلها!

تماسكت أمامها ونظرت في عينيها، فقابلت نظرتي بنظرة مماثلة وابتسمت كأنها سعيدة بالمجهود الذي بذلته لأن نتيجته كانت مرضية.. السن والمرض - أو ربما تعليمات أطبائها - قد شحذوا حواسها.. الأقراص التي تتناولها جعلتها تأكل أقل، تنام أكثر، وعديمة الرغبة في أي شيء.

لو تحدثنا من وجهة نظر كيميائية، فقد شفيت: صارت مستسلمة للحظة الحالية، والسبب هو نظام العلاج الذي تتلقاه، والذي يجعلها ساكنة ولا تفكر؛ كأنها بقرة.

ماذا يمكنني أن أقول؟ بدت في عينيَّ أكثر جمالًا من أي وقت مضى. ربما بدت

مكبوتة، وتفتقر بريقها القديم إلى حدٍّ ما، لكن حتى في غياب ذلك البريق ظهرت ابتسامة لا يعكر صفوها شيء، يصاحبها توهج ونضارة الشباب. بدا وجهها بجمال ينتمي للجنة، لم تشوهه تجربة أو تعززه معاناة.. بدت أكثر جمالاً وأقل جذبًا للآخرين عما كانت عليه سابقًا.. متعادلة، ونقية، وجميلة بشكل تجريدي.

وبدت كذلك: هادئة، وملائكية، وشديدة النهم بسبب الصراع أو الرغبات التي تدور بداخلها. بدت عيناها لامعتين وفارغتين كما لو كانت قرنيتاها متصلبتين.. حتى في هذه الحالة، بدا الضوء الشاحب الذي تسلل من نظرتها الزجاجية ساحراً، وبدا هدوؤها نتيجة ذابلة لليأس المسيطر عليها.

تذكرت، كما يتم تذكيري أحيانًا، بأول مرَّة رأيت فيها "ليليانا" بين ذراعي "إلباتو بيرتِس" في الجامعة.. لم يكن وجهها قد فقد انتعاشه – الذي بدأ يستعيده الآن - بعد.. رؤيتها متشابكة اليد مع "إلباتو" وقتها جعلت دمائي تغلي بغيرة أخوية كما لو كُنتُ قد رأيت أختي تبيع نفسها على ناصية الشارع، مخمورة، ومغطاة بالمكياج.. على الرغم من أنها في ذلك اليوم مع "إلباتو"، لم تكن "ليليانا" مخمورة، وكانت تضع قليلًا من المكياج فقط.

كانت تتجول مع "إلباتو" بادية السعادة، وتخطو في ملابسها الأنيقة. بدت فخورة وترفرف من السعادة كأنها عروس صغيرة السن تحت تأثير تعويذة سحرية من زوج بارد.. ما سيطر عليَّ وقتها لم يكن غضبًا أخويًّا، وإنما كان كراهية دافعها أنه حظي بالمرأة التي نبذتني. انتهى المشهد بالنسبة لي عندما قررت نسيانها. سأكون أنا مَن يتركها، ولن أهتم إذا ما انتهى بها الأمر بين ذراعي "إلباتو بيرتِس" .

لستُ شجاعًا أو متهوراً كفاية لأُجرِّب حظي معها، كما أني لا أشاركها تعطشها للمغامرة، كما لم تكن المظاهر تبهرني.. لست متعجلًا للهرب من المستوي المعيشي الذي يضمني.

تذكَّرت الأيام التي قضيتها هاربًا من صبي بالمدرسة كان يضربني كلما رآني.. ركضت منه طوال عام كامل، ثم توقفت عن الركض، وتوقف هو عن ضربي..

قررت التوقف عن مطاردة "ليليانا مونتويا".

عندما رأتني "ليليانا" أقترب، طلبت من الممرضة تركنا بمفردنا، فابتعدت الممرضة. لم تحاول "ليليانا" القيام من كرسيها المتحرك. بدلًا من هذا، طلبت منِّي الاقتراب.. قرَّبت وجهها من وجهي، وقالت:

- أخرجني من هنا يا "سيرانو".

كان خدَّاها باردين تحت ستار من العرق.. وضعت يديها على مؤخرة عنقي وجذبتني نحوها، ثم تنشقَّت جلدي في المكان الموجود بين ياقة القميص وأُذني. استمرَّت في استنشاقي حتى وصلت لصدري.. استنشقت تحت إبطي من فوق السُّترة، واستنتاجها كان:

- لقد خرجت عن طريقك لتتفاداني.. تفاديك إياي هو كل ما يهمك!

قامت من على كرسيها المتحرك، أخذت يدي، وبدأنا في السير جنبًا إلى جنب.. تجوَّلنا حول "باحة 1"، قالت:

- يمكنني أن أقول لك إنني حفظت هذه الباحة عن ظهر قلب يا "سيرانو"، لكنني لا أتذكَّرها.. لا يوجد بهذه الباحة ما يستحق أن يتذكَّره المرء.

توقَّفت عن مُناداتي "سيرانيتو"، وتوقَّفت عما كانت عليه في السابق أيضًا.

- ماذا تحب أن تعرف عنِّي يا "سيرانو"؟ لن أخفي عنك أي شيء.

عرفت أن "إلباتو بيرتِس" يأتي لرؤيتها دون أن يخبر الرَّفيق "فيرناندیس"، وكذلك تأتي "دوروتيا" لزيارتها، لكنها لم تخبرني. أخبرتني "ليليانا" بأنهم يشعرون بالعار من مرضها. طلبت منها أن تشرح لي ما تقصده.

- كأنني مصباح يشعله أحدهم ويغلقه فجأة يا "سيرانو".. أنتقل ما بين النعيم والجحيم، بينما من المفترض، لكي يعتبروا أن حالتي تحسَّنت، أن أكون في مكانٍ ما في المنتصف بينهما، لكن لا يوجد مثل هذا .. هنا، حيث تراني الآن، أنا في منتصف لا مكان.

كما قلت، بدت في حال رائعة.. منتعشة، وبكامل عافيتها. كالمعتاد، كانت الشمس الحامية تلقي بحرارتها على المكان. اضطرت لعقد حاجبيها عندما استدارت لتنظر نحوي.. لكن لا الشمس، ولا حاجباها المتلاقيان كانا يلقيان أي ظلال من الكآبة على سمات وجهها، أو يضفيان قسوة على النظرة الموجودة في عينيها.

كما اقترحت قبلًا، انعكس في عينيها يأس جامح. في وجه آخر، ربما بدا ذلك البصيص مُحزنًا، لكن في حالة "ليليانا"، بدا رائعًا.. في المجمل، كان مرضها مُزمنًا ودوريًّا. وكانت الأقراص تساعد على إبقائها في حالة مستقرة وتبقيها على الحالة التي هي عليها الآن.

- لقد تركت كل شيء ورائي يا "سيرانو".. صحيح أنني أبدو بصحة جيدة، لكن هذا فقط لأنني أشعر بالملل.. بالنسبة لي لم يعد للحياة طعم.. فقط شعور مستمر من الملل الممتزج بالسعادة.. لا ألم، لا معاناة، ولا دافع للحياة.

لا يوجد بداخلي ما يريد الاحتفال.. الآن صرت المرأة التي تحبها يا "سيرانو"، لكنها لم تعد تحبك، لأنها صارت مجنونة.. في اللحظة الحالية أتذكرك فقط كمجرد أخ.. هل تدرك كم هذا مُحزن؟

أخبرتني أنها دخلت جناح الأمراض النفسية هذا ثلاث مرّات منذ آخر مرّة تلاقينا فيها قبل أربعة أعوام.. المرّة الأولى كانت بعدما فقدنا الاتصال ببعضنا البعض في يوم إطلاق كتابي عن "ويتزيلاك". كان سببها لعدم انتظاري يومها غير مقنع .

- شعرت بالجنون لأنك بعيد عنّي للغاية يا "سيرانو".. بكيت، ولم أستطع التوقف عن النحيب.. ظللت أقول لنفسي إنه سيهينني، وإنه سيطردني، وهذه المرّة من حقه أن يفعلها، لأنك تغيّرت يا "سيرانو" .. لم تعد "سيرانيتو" الخاص بي، أما الآن فأشعر بأنك عُدتُ لتكون "سيرانو " .. لأقول لك الحقيقة، كُنتُ خائفة منك !..

سرى البرد في عظامي بسبب كلامها. كان صمتي يغني عن أي كلمات.. أنهت

كلامها:

- كُنتُ في حاجة ماسَّة لشراب ما.. ذهبت لأحضر واحدًا من البار في الفندق، بينما كُنتَ أنت تُوقِّع الكتب، واستيقظت بعدها بثلاثة أيام في منزل "دوروتيا" أسأل عنك.

كان صمتي لا يزال يرنُّ بالمكان.

- لا تكرهني يا "سيرانو"، أخرجني من هنا!

الفصل العاشر

أوضحت مفكرتي أن تاريخ اليوم الذي عثرت فيه على "ليليانا" بالمستشفى كان 4 نوفمبر، 1999. كُنتُ أزورها مرَّة أسبوعيًّا على الأقل منذ ذلك اليوم.. كانت تمسك بي وتهمس في أُذني:

- أخرجني من هنا!

بوسعي إخراجها.. فليس هناك ما يُبقيها داخل المستشفى، فهي ملتزمة بالأدوية الموصوفة لها، لكن بوسعها أن تدخل وتخرج من المستشفى كما تحب.. كانت تقول الحقيقة عندما قالت:

- لا أحد يجبرني على البقاء هنا يا "سيرانو"، أنا هنا فقط لأرتاح، فأنا مُتعبة للغاية.. أشعر كأنني أنجبت قطيعًا كاملًا من أحصنة البحر!

أصبحت "ليليانا" جزءًا من ديكور المستشفى، فهي تقضي وقتًا هنا أكثر مما تقضيه في أي مكانٍ آخر، فخلال أربع سنوات، دخلتها أربع مرّات.. أول مرّة كانت هروبًا من السجن بعد إدانتها بالقيادة المتهورة وتعريض الممتلكات العامة للخطر، فبعد ليلة جامحة صدمت سيارتين، قبل أن تصطدم سيارتها بنخلة في منطقة مزدحمة في "آفيندا ريفورما". عندما قُبض عليها كانت في حالة من الهياج، وهو اضطراب من أبرز أعراضه التحدث سريعًا، ويدعوه المختصون بـ" Tachypsychia ."

خبرتي مع "ليليانا" أخبرتني أنه يصيبها عندما تستنشق الكوكايين.. لا أُنكر أنني استفدت منه ذات ليلة عندما انطلقت تسرد في أُذني بسرعة عالية قائمة من الأشياء السيئة التي تريد فعلها بجسدي بينما هي تفعلها بالفعل.

أقرَّ المُدَّعى العام وقتها أن ادِّعاء الجنون سيعطيها حكمًا مُخفَّفًا، فوافق على الحكم عليها بالإقامة الجبرية في مصحَّة عقلية بدلًا من السجن.. وبعد خروجها ستقوم المحكمة بإسقاط التهم من عليها.. لكن لن يتم محو ما حدث من ملفها الموجود لدى الشرطة، الذي أظهر نجاحها في إكمال فترة من الإفراج المشروط طالما أنها في رعاية أختها "دوروتيا".

بعد حلِّ قضيتها، بقيت "ليليانا" مواظبة على تناول الأدوية، وعارض أطبَّاؤها فكرة أن يتركوها تقضي فترات طويلة بعيدًا عن المستشفى، فقضاء فترات طويلة في العالم الخارجي كان يتسبب في إضعاف انضباطها الذاتي، وعاجلًا بدلًا من أجلًا ستتوقَّف عن تناول أدويتها، أثناء محاولاتها مواكبة الرِّتم السريع لحياة الناس من حولها.

تسبَّبت محاولتها لمواكبة الناس في تشويشها وزيادة توتُّرها، وقدرتها المُتداعية على التحكم في نفسها أصبحت تهدد حياتها، وسرعان ما انتهى بها الأمر ثانيةً في المستشفى.. آخر مرَّة تمت فيها إعادة إدخالها وهي مقيدة بزي المستشفى للأمراض النفسيين، أو ما أُطلق عليه "القيود الناعمة".

كانت مَن وضعتها فيها تلك المرَّة هي نجمة فريق مستشفى "ميراندا النفسي"، وهي امرأة مُكتنزة الجسد ذات عينين كالآسيويين، وقبضة حديدية.. للمرضى الذين يدخلون تحت إشرافها نوعان:

البالغون المتمردون الذين يهددون والديهم بالسكين، أو الشباب الذين يجثمون عند أطراف المباني ويتوسلون للمارَّة ليستمع أحدهم إليهم قبل أن يقتلوا أنفسهم، وكبار السن المعوقين أو المرضى، الذين على وشك تناول جرعة أخيرة من مُنوِّم "باربيتوريت" الذي أعطاهم إياه طبيب متعاطف.. أتت هذه المرأة القصيرة لمنزل "دوروتيا" مرَّتين، لتضع "ليليانا" في قيودها الناعمة: مرَّة بعد أن قضت ساعات في الإسطبل المجاور للمنزل تتحدث مع حصان ابن أختها "بيرليمان"، ومرَّة عندما أكثرت "ليليانا" من الشرب وبدأت تنتزع صفحات الكتب الموجودة باستوديو زوج أختها "آرنو هيسير". زارت "دوروتيا" "ليليانا" في المستشفى بعد الحادث الثاني، لكنها رفضت دعوتها لمنزلها ثانيةً!

أخبرني بكل هذا الدكتور "بارانكو"، وهو أخصائي نفسي في الأربعينيات من عُمره، أبيض رياضي القوام.. لحيته مزيج من الأبيض والأسود، يحددها هو بدقة جرَّاح.. عيناه سوداوان، وأنفه دقيق، وأصابعه سميكة ذات أظافر يعتني بها جيدًا.. وبينما كان د. "بارانكو" يتحدث إليَّ، راودتني فجأة فكرة أنه أثناء واحدة من جلساتهم العلاجية، لا بد أنه مارس الجنس مع "ليليانا"!

لا بد أن "بارانكو" استوعب ما كنت أفكر به من هيأتي وصمتي، لأن لسانه ثقل فجأة، وفقد ترتيب أفكاره.. بدت المصطلحات الطبية الرنَّانة عصية على الخروج من بين شفتيه الورديتين الرفيعتين.. كشفت شفتاه الصغيرتان عن صفٍّ من الأسنان البيضاء، ولسان وردي خلفهما.

كان بوسعي أن أتصوَّر بسهولة ذلك اللسان وتلك الشفاه وهما يتحسَّسان أسنان "ليليانا" البيضاء المنتظمة. تخيَّلت كليهما بأنياب بارزة للعالم كله.. العائق الرئيسي لترك "ليليانا" المستشفى كان أنها لا تملك أي مال.. حسب حساباتي، فهي بددت ثروة لا بأس بها، أما بحساباتها هي، فقط خسرت ما يوازي شقتين لم تعد تمتلك أيًّا منهما بعد الآن.

ما يبقيها فعلًا بالمستشفى كان أنها لا تملك ما تعيش عليه يومًا بعد يوم.. غطت شركة الأدوية الألمانية التي يرأسها زوج "دوروتيا" تكاليف علاج "ليليانا" الضخمة كمريضة داخل مستشفى.

بوسع "دوروتيا" ماديًّا أن تبقى "ليليانا" خارج المستشفى بنصف تكاليف إقامتها فيه، لكن "دوروتيا" تعرف أن "ليليانا" عاجلًا أم آجلًا ستهرب وتتصرف بطيش، وهو الأمر الذي سيكلف "دوروتيا" الكثير.. لم أفهم بالبداية مقصد "ليليانا" عندما همست في أُذني بـ"أخرجني من هنا.."، أنها أرادت أن تنتقل لتعيش معي وتحظى بدعمي النفسي، وربما المادي.. لكنني كُنتُ أصم لطلبها، وأسرني دفء أنفاسها في أُذني.

كانت تأسرني الطريقة التي يصبح بها صوتها عميقًا عندما تهمس "أخرجني من هنا!".. فكرة أن الأمنية التي تمنيتها طيلة حياتي - وهي حلمي بخصوص "ليليانا"مونتويا" - يمكن أن تتحقق، فارت داخل جسدي بأكمله.. ليس "ليليانا" بحالتها الآن ولا بحالتها في أي يوم، لكن "ليليانا" كما كانت تظهر في أحلامي بالماضي، والحاضر، والمستقبل.

تعمَّدت أن تكون زيارتي يوم الأحد في نفس موعد زيارة "دوروتيا" لأخبرها بأنني سأقوم بإخراج "ليليانا" من المستشفى، وأنني أخطط لنعيش أنا وهي معًا.

بعد صمت طويل، ردَّت "دوروتيا" محذرة "ليليانا":

- لا أوافق.. ستفسدين كل شيء!

ثم توجهت نحوي بالكلام:

- ستندم يا "سيرانو"!

أثار صوتها البارد وطريقتها في التحديق في عينَيَّ الرُّعب بداخلي.. والغريب أن كوني بوسعي التجسس عليها كما تجسست قبلًا بدَّد مخاوفي.. بوسع "مالاكيز" أن يُنقِّب ويُفتِّش في كل جانب من جوانب حياتها ليخبرني بكل ما استطاع الوصول إليه.

في الواقع، ترك "مالاكيز" لي إسطوانة عليها صور وفيديوهات لأحد تتبع فيها "دوروتيا". لم أشاهده حتى الآن. تذكُّري أن تلك الإسطوانة بحوزتي زاد من إحساسي بالتفوق المكتسب من كوني تجسَّست عليها. وقد كُنتُ بحاجة لذلك الإحساس الآن!

أوضحت مذكراتي أن اليوم الذي أخرجت فيه "ليليانا" من المستشفى هو الخميس الموافق 25 سبتمبر 2000.. كنا قد قرَّرنا أن نعيش معًا في منزلي.

أول شيء اتفقنا عليه هو أن بوسعها أن تعيد ترتيب المكان كما تحب، وسأقوم أنا بالدفع.. كُنتُ أعيش في المبنى نفسه الذي عشتُ فيه طيلة حياتي – والواقع في ضاحية "ديل فالي" في "مكسيكو سيتي" - منذ أن تزوَّجت "أوريليا ألبرتو"، التي أعتبرها وحش "ميدوسا" الخاص بي. ما زلت أسكن بالشقة نفسها، لكنني صرت أملكها الآن، كما اشتريت الشقة المواجهة لها.. قمت بإزالة جدار، وحوَّلت المكان كله لإستوديو كبير يمتلئ بالكتب واللوحات، ومكتبين من الطراز الملكي.

قال أحد النقاد إن الإستوديو والمكتبين الخاصين بي توحي بعظمة الكاتب الذي يملكها أكثر من كتاباتي نفسها.. ربما كان محقًّا في تلك النقطة، لكنه مخطئ بصدد كل شيء آخر.

أول سؤال ألقت به "ليليانا" عندما كُنتُ أُريها أنحاء بيتها الجديد كان مُؤثِّرًا.. كانت تجاهد لترتيب أفكارها كما يفعل الأطفال أحيانًا. بدت عيناها وكأنما تغطيهما غشاوة وهي تنظر نحوي. سألت:

- ماذا تريدني أن أفعل يا "سيرانو"؟ أريد أن أجعلك سعيدًا.

كانت الأيام التالية غريبة للغاية، مجرد أيام روتينية تجري وراء بعضها البعض، باستثناء أننا لم نتواصل حقيقة ولا مرَّة.. لا أعرف كيف أعيش مع شخص آخر، وقد أدهشني أن أرى "ليليانا" وهي تتجوَّل في أنحاء الشقة، أو وهي تجلس كشبح في الصالة!

قضت ساعات تستمع لأشرطتها وتقوم بترتيبها، ففي نيتها أن تقوم بإصدار إسطوانة تحتوي على أغانيها.. كانت تضع سمَّاعات ضخمة لتتمكن من سماع أغانيها دون أن تغمر الشقة بأكملها بالصوت.. كان هدوء حركتها يزيد من عدم واقعية وجودها.. أعرف أنها في الجهة الأخرى من الشقة بينما أنا أكتب، فقد كُنتُ أسمعها أحيانًا تأتي وتذهب، لكنها بدت وكأنها في مكان آخر، عالم صوتها وأفكارها.. كان صمتًا مُخيفًا.

رفضت أن تخرج من البيت خوفًا من أن تتم غوايتها، ففي رأيها، حتى المطعم بريء المظهر يمكنه أن يكون بوَّابة تقود للجحيم.. كانت تُهدِّئ نفسها بإعداد ثلاث وجبات يوميًّا: إفطار، وغداء، وعشاء خفيف.. شهيتها الضارية القديمة صارت من الماضي، وتناول الطعام معها الآن صار كأنني أتبع نظام ريجيم.. وجباتها صارت تتكون من أشياء خضراء، وشوربة، ومشروبات غير كحولية وغير مُحلَّاة.

أخبرتني في أحد الأيام أنها ذهبت لرؤية قسيس بالأبرشية التي تقع في حيِّنا.. سألته إذا كان ممكنًا ألا يؤمن الشخص بأي شيء.. أجابها القسيس بأن هذا غير ممكن لأن الإيمان يساوي الحياة نفسها.

أصرَّت على أن كلامه لا ينطبق عليها، فأجابها القسيس أنه لا يصدقها.. حكت له "ليليانا" تلخيصًا غير مُنقَّح من حياتها، وهو ما جعلها تشعر بأنها أفضل.

طلبت منها أن تخبرني بما قالته له، فأجابتني:

- يجب ألا تعرف يا "سيرانو".. إنها أشياء للقسيسين فقط!

لم تستطع تحمل فكرة أن تخبرني بما قالته للقسيس. وضعت يدها فوق فمها، ثم استمرت في اعترافها في مزيج من التسلية والرُّعب:

- صرتُ راهبة يا "سيرانو". هل يجعلني هذا غريبة بالنسبة لك؟ ماذا كان والدي سيقول لو عرف ما حدث؟

لا بد أنها كانت لتبدو غريبة عن د. "مونتويا" الملحد كذلك.. هذه أول مرَّة أسمعها تتحدث فيها عن أبيها، وقد اعتبرتها أثرًا جانبيًّا للأدوية التي تتناولها.. غالبًا كان العجوز سيقول: "لو كان عليَّ الاختيار بين جهنم والأدوية، لاخترت الأدوية".

ما حدث بعد ذلك هو أنها قامت بخلع ملابسها، ثم رقدت على ظهرها، تلوَّت، خلعت رداءها الداخلي، قبل أن تقوم بلف ذراعيها وساقيها حولي، ثم أغلقت عينيها.

هذا هو ما رأيته من موقعي فوقها: كانت عيناها منغلقتين.. لم تكن مُستثارة، كما لم تكن تنظر للسقف في انتظار أن أنتهي.. كانت مُستسلمة بالكامل، محاولة أن ترى إذا ما كانت ستشعر بأي شيء.. ليست كمحترفات مهنة ممارسة الجنس، وإنما كشريكة تتجاوب مع طلب شريكها.. تريد لشريكها أن يلجها، فحبه يُثيرها، وتريد أن تردَّ له هذا الجميل، لكن أفضل ما يمكنها منحه إياه هو ذلك العشق الوهمي.. ليس رفضًا، كما لم يكن قبولًا كذلك، اكتسب الشريك استسلام جسدها، حتى ولو لم يكن قلبها ومزيج هورموناتها موجودين في المُعادلة.

الأقراص.

صارت "ليليانا" ملاكًا تحت تأثير الأدوية، امرأة جميلة لا تحركها أو تتحكم فيها الرغبة.. جميلة، لكن باردة.. فقد جسدها تلك الرعشة التي كانت تسري فيه عند أقل بادرة من الحميمية، كنظرة، ولمسة، ومُداعبة خصلة من شعر تحت الإبط، أو انعكاس باطن القدم على الأرضية اللامعة.. الآن لم يعد هناك شيء قادر

على تهيئة الطريق لممارسة الحب كما كنا نفعل بالسابق.

طفت أول مرحلة من حياتنا معًا كأنها سحابة، أو كأنها ضباب مهدئ لأكون أكثر دقة.. صار العالم برُمَّته هادئًا، ونظيفًا، وصحيًّا.. لا توجد صعاب، وكل شيء يسبح في غلالة من ضوء خافت بلا ظلال.

كان هناك استثناء واحد، وهو أن الأقراص تركت صوتها سليمًا.. كان صوتها أجشَّ وجامحًا كما كان دومًا.. سمعتها تغني بينما تستحمُّ.. أحبت أغنية "الحمامة السوداء" Paloma negra كثيراً. وهي أغنية تبدأ بصرخة عالية يائسة:

"تعبت من البكاء،

طيلة ليالي السهر،

لا أعرف إن كان عليَّ أن

ألعنك أم أن أدعو لك!".

بدأت "ليليانا" غناءها بصوت عالٍ كما لو كانت تغني بمكان مفتوح في حلقة "روديو"، بينما تأخذ حمَّامًا بمياه ساخنة لدرجة الغليان.. كان بوسعي رؤية جسدها من خلال باب كابينة الاستحمام الزجاجي.. تفاصيل جسدها كانت واضحة أمامي من خلال غلالة من البخار بينما هي تستحمُّ وتغني بكامل طاقتها.. كان بوسعي رؤية أنها لم تكن حزينة على الرغم من الكلمات الحزينة التي تغنيها.. تألَّقت قطرات البخار الناعمة وهي تُعانق جلدها في طريقها نزولًا، لتكسب بشرتها النحاسية ظلًّا من اللون الأحمر.

غسلت أول كمية وضعتها من الشامبو عن شعرها، بينما أنا أراقبها من خلال باب الحمَّام، بعيدًا عن مجال رؤيتها.. اخترق صوتها باب الحمَّام الزجاجي مُحكم الإغلاق، وعندما وصلت لمقطع من الأغنية تقول فيه: "أريد أن أصبح حرة لأعيش حياتي مع من أحب"، ارتجف صوتها واختنق، بينما كانت نبرته تنخفض، كأنما هو استنجاد حيوان جريح، ربما خنزير مذبوح!

كان هذا هو حالنا، حتى استيقظت ذات صباح من شهر ديسمبر لأجد "ليليانا" ترقد بجانبي عارية.. لم تكن ترتدي أي ملابس، وكانت بشرتها رطبة.. آخر ليلة أتذكَّر فيها أنها حاولت التقرب منِّي هكذا كانت في "ويتزيلاك" منذ آلاف السنين.

كان صباحًا باردًا، لكن السخان الذي يعمل بالغاز كان يُبقي حجرة نومنا دافئة، فكما تقتضي العادة، تعوَّدت على إشعاله.. وقفت "ليليانا" مُعطيةً ظهرها للشتاء الذي قرع النوافذ، ودعتني للوقوف بجانبها.. بدا كأن ذلك اليوم الرمادي المُتسلِّل عبر الزجاج المُغطَّى بالضباب يلقي تعويذة شهوانية عليَّ! كانت أول مرَّة أرى فيها جسدها العاري من الأمام منذ نهاية تلك الرحلة في "ويتزيلاك".. أطلق عُريها هذا كل الشهوات والعواصف المُتراكمة داخلي بشكل لم يحدث طيلة معرفتنا القديمة ببعضنا البعض، ولم يحدث حتى مع مشاهدتي جسدها العاري لسنوات ربما كانت قليلة العدد، ولكنها لا تكاد تقترب من تلك العظمة الأسطورية! ولا مرَّة سابقة يمكن أن تقارن بتلك الموشكة على البدء في ذلك الصباح من تحوُّل "ليليانا".. لستُ واثقًا من كوني ذكرت سابقًا الخصلات الرمادية التي بدأت في الظهور في شعر رأسها وعانتها أم لا.

- توقَّفت عن تناول الأقراص التي تجعلني غير راغبة فيك يا "سيرانو".. هل هذا سيئ؟

أوامر الطبيب كانت واضحة بصدد عدم التَّوقُّف عن تناول الأدوية.. أعرف أنها تتسبَّب في إصابتها بلا مُبالاة شديدة، لكن عدم تناولها يجعلها مُفرطة النشاط، وفرط النشاط سيقودها للمستشفى ثانيةً.. كان هذا ما يُثير ذُعري بصدد "ليليانا"، وهو ما آثار ذُعري دومًا.. لكن ليس هذه المرَّة، وعندما سألتني:

- هل كان هذا سيئًا؟

أجبتها:

- لو كان هذا سيئًا، فلتأتي الأوقات السيئة!

الفصل الحادي عشر

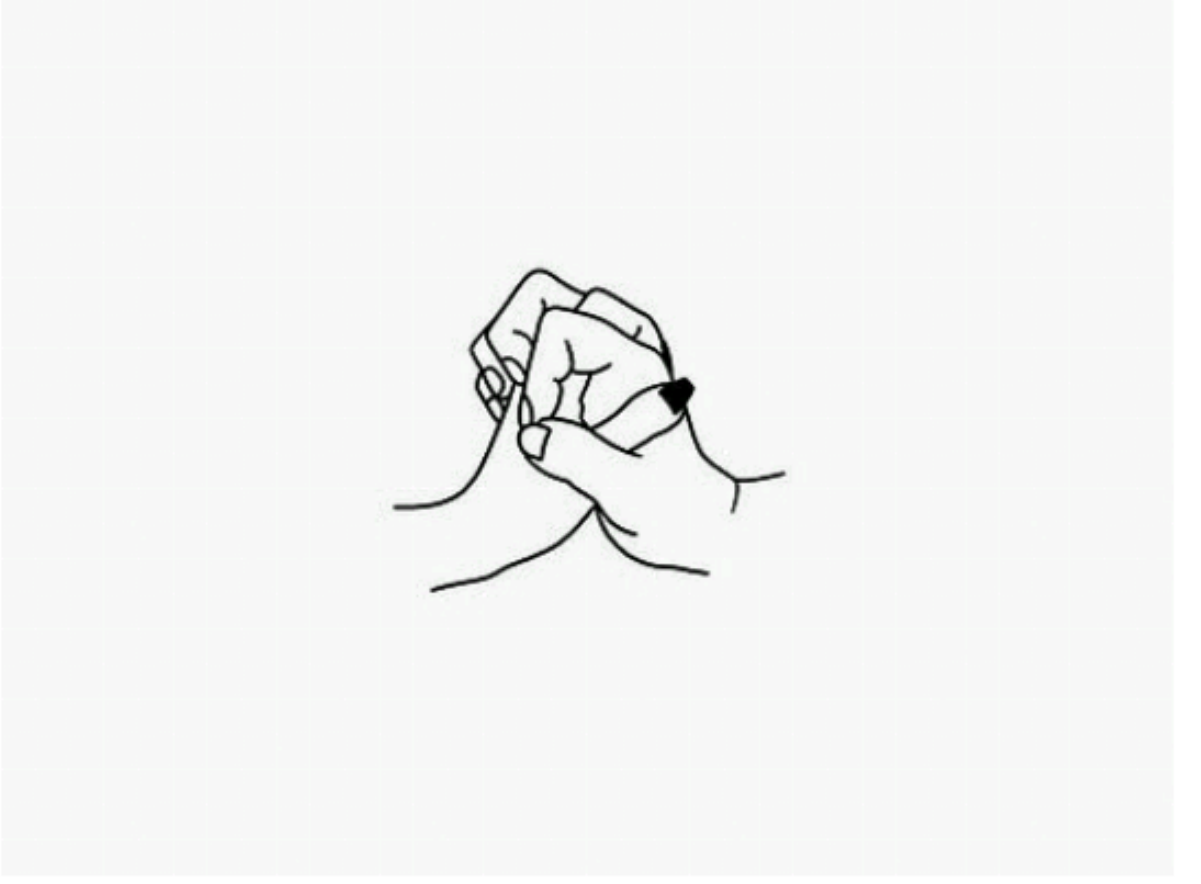

لم تكن أبدًا بذلك الجمال الذي كانت عليه في تلك الأيام من الجنون! لم تكن يومًا أكثر جنونًا من تلك الأيام التي تتكس فيها عائدة للجنون!

لكي أكون معها يجب أُن أشاركها حالتها الجنونية . هناك ليلة لم تستطع فيها النوم، فرحلت في منتصف الليل ولم تعُد ثانيةً! كل ما كان بوسعي فعله هو انتظارها. انتظرت بأسوأ طريقة ممكنة، جالسًا على مكتبي أكتب، متظاهرًا بأنني أقرأ أو أكتب، بينما أرهف سمعي للصوت الوحيد الذي يهمني حقًّا، وهو صوت قفل الباب الذي يجب أن تدخل منه. ظهرت ثانيةً عند الظهر. من مكاني على المكتب كان بوسعي سماع صوت ريشة القفل وهي تدور مصدرة تكّاتها المميزة. بذلت قصارى جهدي لأبدو وكأنني أكتب فعلًا.

- توقَّف عن الشخبطة.

كانت تقف عند مدخل الباب، بعيدة، يبدو عليها الاستمتاع، عارفة جيدًا أنني كُنتُ أنتظرها.. لم أرد عليها، ولم أحرك عضلة واحدة في جسدي.

صرخت في مواجهة صمتي:

- لا شخبطة!

ثم أردفت لثالث مرَّة وهي تقف أمام مكتبي:

- طلبتُ منك أن تتوقَّف عن الشخبطة!

كانت قد سرَّحت شعرها بشكل أنيق، وكانت هناك بقايا ماسكارا سوداء على جفنيها.. ضحكت ساخرة من صمتي والطريقة التي نظرت بها نحوها.. دارت كأنها راقصة باليه وهي تقول:

- سآخذ حمَّامًا طويلًا، ثم سأكون مُستعدَّة لك.

خرجت بعد بُرهة من الحمَّام ملفوفة بالمناشف. كان وجهها نظيفًا لامعًا كوجه فتاة صغيرة، قالت:

- لم يحدث شيء يا "سيرانو".. هل تريدني أن أخبرك بما حدث، أم ستقدم لي مشروبًا أولًا؟

قدَّمت لها المشروب، فمنزلي به كل ما يرغب فيه المرء.. فحسب اتفاق غير منطوق بيننا، يجب إعادة ملء خزينة النبيذ يوميًّا، حتى لا تفرغ أبدًا.. تراصَّت بداخلها زجاجات التيكيلا، والويسكي، والروم المحلي، والفودكا التي تفضلها "ليليانا" والتي توجد طيلة الوقت على رفوف غرفة الطعام كزينة دائمة الوجود، في انتطار استهلاكها.

كانت حافية القدمين، مُبلَّلة، وتبدو بنية أكثر من المُعتاد بسبب المناشف البيضاء، قالت:

- أنا جائعة يا "سيرانو".. أيمكنك أن تأخذني لنأكل في "لا كانتيرا"؟

كانت تقصد "لا كاسا ديلا كانتيرا"، أو "بيت المحاجر" Quarry House ، وهو مطعم يقدم الطعام المكسيكي التقليدي في شارع "يوكاتان" في حي "روما".. كان هناك ثلاثي يؤدون أغانيهم التي تسلي السكرتيرات ورؤسائهن في جو شاعري لأولئك الذين على وشك أن يستأجروا غرف لاستكمال الأمسية.

اسمه على مسمى، فجدران "لا كانتيرا" الوردية مغطاة بالرخام العتيق، بينما التصميمات المتناثرة في الأرضية والجدران تدلُّ على ذوق المصممين المحبين للتقليدية.. عرفت ما ستقوله "ليليانا" منذ الدقيقة التي دخلنا فيها عبر الباب:

- كانت لدى الشاعر، الصحفي، وزير النساء "ريناتو ليدوك" منضدة محجوزة هنا دومًا له.. اطلب من النادل أن يُجلسنا عليها.

أعطيت النادل بقشيشًا سخيًّا وطلبت منه أن يصطحبنا لمنضدة "ريناتو" هذه، فأجلسنا في ركن مريح من المطعم الكبير.

بعد أن جلسنا، طلبت "ليليانا":

- كبداية، أريدك أن تلقي بقصيدة "بروميثيوس المصاب بمرض الزهري" على مسامعي.

اعتدنا قراءة قصيدة "ليدوك" هذه منذ أن تلاها أخوها "روبين" أمامنا منذ آلاف السنوات.. كانت قصيدة غنائية لعاهرات ذلك الوقت.. في تلك القصيدة يقول "ليدوك" إن الآلهة جعلت أحشاء "بروميثيوس" تتعفَّن من مرض السيلان لأنه علَّم البشر ممارسة الجنس في ستة وأربعين وضعًا مختلفًا.

- ألقها على مسامعي يا "سيرانو"، فأنت مَن علَّمني إياها.. "يبحث الفانون البؤساء في كل مكان عن النساء".. هيَّا يا "سيرانو"، أكملها.. "الذين يضاجعون كالديناصورات" هيَّا يا "سيرانو"، أنت مَن علَّمها لي.

أجبتها أن "روبين" هو مَن علَّمها لكلينا.

- مَن يتذكَّر "روبين" يا "سيرانو"؟ مَن يريد التحدث عنه؟ هل تريدني أن أضني

نفسي بالتفكير في "روبين"؟ أنت مَن عرفتني على عالم "ليدوك" يا "سيرانو".. على تلك المنضدة التي كانت محجوزة دومًا له. أعترف أنني ذات يوم حاولت أخذه لمنزلي من مطعم آخر.. أعتقد أن اسمه كان "آل رينكون دي كوتشاريس".. كان وقتها في حوالي التسعين من عُمره، قبل وفاته ببضعة أعوام.. قُلتُ له:

- أنا موجودة يا "ريناتو".. سألبسك ملابسك وأعتني بك وستموت بين ذراعَي.. لكنه كان قد فقد بصره في ذلك الوقت، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، وعلى الرغم من هذا كان عجوزًا شديد الوسامة.. في هذه السن كان يستحق وجود مَن يعتني به.. أنت تشبه "ليدوك" يا "سيرانو".. تشبهه كثيراً.. ألقِ عليَّ تلك القصيدة الأخرى التي قلت إنها لـ"ليدوك".. تلك التي تتحدث عن الدخان والرياح.. لقد أحببت دومًا الطريقة التي تُلقي بها القصائد يا "سيرانو"، وأحببتك أنت دومًا كذلك.. اللعنة! وحتى أحبك أكثر الآن ونحن معًا.. لا أريد أن أتوقف.. لا تمنعني.. ماذا كانت كلمات القصيدة؟.. "لو تجمد الدخان مكانه، لو عادت الرياح ثانيةً" هيَّا يا "سيرانو".. "لو عُدت لتكون نفسك ثانيةً، تعود لتكون ما لم تكنه معي أبدًا" أي شراب سنتناوله يا "سيرانو"؟

ضاعفت كمية الشراب التي طلبناها، وبينما كانوا يحضرون طلبنا تذكَّرت النخلة الجافة الذابلة التي كانت تنمو أمام مطعم "لا كافا" في الأيام الخالية، عندما كان مطعمًا من مطاعم الدرجة الأولى.. أول مرَّة ذهبت فيها إلى "لا كافا" مع "ليليانا" تنحَّيت جانبًا عندما دفعت هي الحساب بنقود "إلباتو بيرتِس". كانت قد بدأت الخروج بصحبة "إلباتو" منذ فترة قصيرة، لكنها كانت قد بدأت تسبح بالفعل في النقود وكروت الائتمان كما أعتقد أنني ذكرت سابقًا.

دعتني لتناول الطعام معًا كما يفعل الناس عندما يتلقون أول راتب في حياتهم.. قالت:

- لن تريد أن تعرف ما الذي يفعله "إلباتو" لي أو ما أفعله له.. الكتَّاب مثلك يجب ألا يعرفوا مثل هذه الأشياء.. يجب عليهم أن يستعملوا مُخيِّلتهم.

سمعت صوتها الأجشَّ يهمس:

- أنا في طريقي لأعلى يا "سيرانو".. أراك في الجنة.

فيما بعد، وبينما كنا راحلين عن "لا كافا"، قالت:

- عندما يحين الوقت لانفصالي عن "إلباتو"، ويصبح بوسعي أنا وأنت أن نتناول الطعام هنا على حسابي، سيكون هذا هو موعد عودتنا لبعضنا البعض يا "سيرانو".. سنعيش معًا القدر المكتوب لنا.. سنكون أنا وأنت من نصيب بعضنا البعض!

في تلك الأيام كانت تحب أن أُلقي عليها بعض سطور الشاعر "جارسيا لوركا"، والتي كُنتُ أحفظها بالإضافة لحفظي قصائد "ليدوك" .

سطور قصائد " لوركا" كانت تقول:

"الديوك يسعون نحو الفجر..

بمناقيرهم بينما..

تنزل "سوليداد مونتويا"،

من جبلها المظلم".

اعتدت، عندما كُنتُ أُلقي تلك الأبيات، وضع اسم "ليليانا" مكان اسم "سوليداد"، وكانت وقتها تشعر بالإثارة وتسألني:

- أي جبل مظلم يقصد يا "سيرانو"؟

وحينها أرد عليها:

- الجبل الخاص بكِ طبعًا.

كان المساء قد حلَّ عندما رحلنا عن "لا كاسا ديلا كانتيرا".

- أريد أن أُغنِّي يا "سيرانو". ماذا تريدني أن أُغنِّي لك؟ هل ستأخذني لبار أعرفه؟

أخذتني لبار في فندق "آمبيريس"، حيث قام رجل يُدعى "أنتونيو"، كان يلعب على البيانو، بتحيتها كما لو كانت مغنية مشهورة تزور المكان.

طلبت "ليليانا" زجاجة، وغنَّت ثلاث أُغنيات.. كان صوتها ناعمًا وعميقًا. عندما نزل لأقل نبراته أخذ فمها شكل القبلة، وكان طلاء شفتيها الأحمر البرَّاق يلمع في ضوء البار.. وقفت بجوار البيانو، وهي ممسكة بالميكروفون. أهدت آخر أغنية غنَّتها لي!

اسمها "الكذبة".. اقتربت من طاولتنا، وغنَّت في مواجهتي، بينما شفتاها وعيناها تلمعان:

"تنسى دومًا

أنك تحبني

على الرغم من كل ما تقوله".

أتى أحمق ما لدعوتنا على شراب طالبًا سماع أغنية أخرى. أخبرته أنها ليست جهاز جراموفون آليًّا لعينًا. ابتسمت "ليليانا" وقد شعرت بالإطراء.

- تحركت من أجلي تلك المرَّة فقط، وكان هذا كافيًا لي يا "سيرانو"، لا تهتم.

أتى عازف البيانو لطاولتنا بعدما انتهى من العزف.

كان ذا شعر رمادي غطَّته طبقة من كريم "بيريانتين" عند صدغه، وشارب كان مزيجًا من الأبيض والأسود كالمُغنِّين أيام الماضي البعيد.

قال لـ"ليليانا":

- يجب أن تقومي بتسجيل شريط يا "سنيورا".. صوت كهذا يجب ألا يمرَّ هكذا دون تسجيل.

ثم همهم بصوت دمَّرته السجائر:

"تسى دومًا

أني بوسعي أن أؤذيك

لو أردت".

أكمل عازف البيانو:

- يجب أن تفكري في الأمر يا "سنيورا".

- لقد فكَّرت بالفعل يا "أنتونيو".. كل ما يهمني الآن هو هذا السيد.

وبكلمة "هذا السيد" كانت تقصدني أنا.. لم يلبث أن عاد لطاولتنا الرجل الذي أراد من "ليليانا" أن تغني له. نهض "أنتونيو" عازف البيانو وقاده لمائدته. رمقني الرجل الذي كان من الواضح أنه مُعتاد على الشجار بنظرة اتهام، وأشار نحوي بإصبعه. كان يرتدي قميصًا أزرق، بياقة ضيقة، ورابطة عُنق حمراء، أمَّا رأسه فقد غطته طبقة غزيرة من شعر بلون القش، وكان مُشعثًا بسبب كثرة الشراب.

بعدما خرجنا من "آل آمبيريس" قالت "ليليانا":

- أترغب في الرقص؟

عُدنا ثانيةً إلى حي "روما"، وقصدنا مكانًا اسمه "آل جران ليون"، ليس بعيدًا عن "لا كاسا ديلا كانتيرا"، حيث ذهبنا في منتصف اليوم.. يُعتبر "آل جران ليون" نسخة أوسع وأكثر رُقيًّا من بار "ديل ليون" القديم، والواقع في شارع "البرازيل"، بمنطقة وسط البلد، حيث اعتدنا أن نذهب حينما كنا صغيرين.. كان هناك مجموعة من العازفين القُدامى الذين أعادوا استخدامهم هنا، لا يزالون يعزفون هناك، وهم "يبي أرييالو"، ومجموعته الخلاسية "المولاتو" الخاصة به، وهم مجموعة من العازفين تمت تسميتهم كذلك لأنهم نتجوا عن تزاوج البيض مع السُّود.

جلسنا على طاولة قُرب ساحة الرقص، وشعرنا بالزمن يرجع بنا للماضي، لكن الموسيقى كانت عالية، والأنوار أكثر علوًّا، ورحلتنا داخل الذاكرة حادَّة..

ما زالت الزجاجة التي لم نُنهها في "آمبيريس" مع "ليليانا" في حقيبة يدها، لكن هذا لم يمنعها من طلب زجاجة أخرى.

بعدما وصل طلبنا بقليل دخلت مجموعة للمكان وجلسوا على الطاولة المجاورة لنا، وكان الحقير الذي طلب أغنية أخرى في "الآمبيريس" من ضمن أفراد المجموعة!

بدا أكثر ثمالة منَّا، وأطول قامة منِّي. كانت رابطة عُنقه الحمراء لا تزال تحيط بياقة قميصه الأزرق، لكن شعره الذي بلون القش بدا في أسوأ حال.

أشار إليَّ وهو يجلس على المنضدة المجاورة ويهتف:

- أنت ذلك الوغد الذي رأيته بالمطعم الآخر، وهي تلك الفتاة التي ترفض الغناء لمُعجبيها! فهمت مقصدي أيها الحقير؟ فهمته، أليس كذلك؟

نادت "ليليانا" على النادل وهمست بشيء ما في أُذنه.. وفي أُذني أنا همست بأنني يجب أن أنهض وأرحل بمجرد ذهابها لدورة المياه، وستكون هي بانتظاري بالخارج.. نهضت "ليليانا"، فقال القذر ذو رابطة العُنق الحمراء:

- والآن، هل ستغنين من أجلي؟

أخرج سيجارًا، وأشعله، وحدَّق في "ليليانا".. سحب نفسًا وازدادت نيران الغضب في نظراته.

أجابته "ليليانا":

- عندما أعود من الحمَّام.

انتظرتها لتتحرَّك، ثم اتَّجهت نحو الباب.. عندما رأيتها بالخارج، قالت:

- أريد أن آخذك للعرين الخاص بي.

وجَّهت سائق التاكسي عبر "ريفورما".. تركنا حي "روما" واتَّجهنا نحو شارع "نهر

الراين" في حي "كواهيتيموك"، حيث تتم تسمية كل الشوارع على أسماء الأنهار.. توقَّف التاكسي أمام بيت حجري إسباني الطراز مُغطًّى بحواجز مُشبكة من المعدن.

هذا المبنى كان له جراج ضخم تم تحويله لبهو فخم، يقود لمبنى يتكوَّن من ثلاثة طوابق.. اسم المكان هو "أوليمباس"، وهو بمثابة مكان لكل مَن يبحث عن شخص لقضاء الليلة معه أو معها، في غرف مظلمة من مختلف الأحجام، بوسع الجميع الاختلاط حسب ميولهم: رُباعيات، وسُداسيات، أو أكثر.. هناك بار حيث يستطيع الزبائن مقابلة مَن يريدون، أو يمكنهم الاكتفاء بالشراب.. من مؤخرة المطبخ - الذي أصبح الآن مكتب المدير ومخزنًا للكحوليات والمنشطات - يبرز تاجر مخدرات قديم من "ثينجاروس" القُدامى Cingaros وهم مجموعة من الغجر.

وقف "مينيرفا" بمنظره الصادم المنظر وشعره المُشابه للبدة الأسد، والذي صار يُصفِّفه الآن كزهرة "أُرْطَاسيا" سوداء مزهرة، تنتصب فوق جذعه المستقيم كأنه قضيب بندقية.

سألنا "مينيرفا":

- غرفتك؟

أجابته "ليليانا":

- غرفتي.

سأل "مينيرفا":

- أتريدان شرابًا؟

أعطت "ليليانا" تعليماتها:

- نريد أن يتم إيقاظنا أولًا، ثم سنشرب حتى الثمالة بعدها.

بدا الأمر كله سخيفًا وغامضًا بالنسبة لي. قادنا "مينيرفا" لحجرة في الطابق الأعلى، وهو طابق تم بناؤه وفق السقف القديم. وجدنا الكثير من المراتب المائية التي امتدَّت من الجدار للجدار لتُغطِّي الأرضية. وللغرفة نافذة واحدة دون ستائر. الليلة، تسلَّل ضوء القمر عبر النافذة.

وبينما "مينيرفا" يحضر المؤُن، قامت "ليليانا" بخلع ملابسها، ثم خلع ملابسي، ثم فردت لحافًا محشوًّا بالريش كان مطويًّا على السرير فوقنا نحن الاثنين.. كان خفيفًا وناعمًا، وكبيراً كفايةً ليلتف حولنا نحن الاثنين عدَّة مرَّات. كما لو كان بحراً من الحرير.

أحضر "مينيرفا" الفودكا الخاصة بـ"ليليانا" في زجاجة معدنية صغيرة، في دلو مليء بالثلج.. كما أحضر صندوق أقراص من اللازورد، يحتوي على جرام من الكوكايين وبعض الأقراص التي لم أستطع تمييزها.

أسرعت "ليليانا" بفتح كيس الكوكايين وسكبت جزءًا من البودرة على اللحاف، وبأنفها تتبَّعت ما سكبته، وبدأت تستنشقه بإحدى فتحات أنفها، ثم الأخرى.. جمعت ما تبقَّى بأصابعها، ثم دلَّكته بداخل أنفي، قبل أن تضع أصابعها في فمي لتُدلِّك لثتي.. وبينما هي تفعل ذلك، كانت تأخذ أنفاسًا عميقة كما لو كانت على شفا الوصول للنَّشوة.

بدأت الحديث:

- أنت لا تعتني بنفسك يا "سيرانو"، لهذا سأعتني أنا بكَ.

ثم استمرَّت دون توقُّف في الحديث عنَّا، وعن أوقاتنا الماضية، وعن "ألكاتراتشو"، كما تقتضي العادة:

- هل حكيت لك من قبل عن الرجل الذي قتلته يا "سيرانو"؟

عُدنا أخيراً حيث يجب أن نكون، حيث كنا دومًا.. ذكَّرتها أنها قد حكت القصة من قبل ثلاث مرَّات!

- ثلاث مرَّات!

أجبتها:

- ثلاث مرَّات، وكل مرَّة بتفاصيل مختلفة لا تتوافق مع بعضها البعض.. وحتى تاريخ التنفيذ راجعته لأجد أنه خطأ كذلك!

- خطأ؟ أي تاريخ كان خطأ يا "سيرانو"؟

- التاريخ الذي أخبرتني أن العملية تمت فيه لم يكن صحيحًا!

- وأي تاريخ أعطيتك إيَّاه يا "سيرانو"؟

- يوم الفلانتاين عام 1978.

- لم يكن عام 1978 يا "سيرانو"، كان عام 1979.. 14 فبراير 1979.. يا لي من غبية!

أخبرتها أنني قمت بهذا التصحيح بالفعل، وقد اكتشفت الخطأ أثناء قيامي بالتحقيق في الموضوع.

- تحقيق! ولماذا قمت بالتحقيق فيما أخبرتك به؟

- لكي أتأكَّد.

- لِمَ لا تقوم الآن لتتأكَّد من مُؤخِّرتي إذًا! أنت تريد تحويل قصة حياتي لرواية أيها الحقير! أليس عيش تلك المأساة كافيًا؟ لم تتعلَّم شيئًا.. دعني أُخبرك شيئًا.. افعل ما تريد، لكن لا تأتي لي بأي هراء من نتائج بحثك هذه. لماذا تتحقق من الأصل؟ كل ما كان عليك فعله هو أن تسألني، وكُنتُ سأُخبرك بالقصة كاملةً. لن أكون مثل الشهود الذين تعاملت معهم في مذبحة "ويتزيلاك"، الذين لم يكونوا يعرفون معلومة واحدة لعينة!

سأخبرك شيئًا يا"سيرانو".. أنت تدسُّ أنفك بالقُرب من الأموات والجثث مثل النسور الضارية أيها القذر.. عمومًا لا يُحدث هذا فارقًا لي، اذهب واسأل وفتِّش

كما تريد.. لكن أخبرني شيئًا أولًا.. أتعتقد حقًّا أنني يمكنني أن أفسد كل شيء كما تقول إنني فعلت، أم أنك تظنني مجرد عاهرة تحب الفضائح والإشاعات؟

أجبتها قائلًا:

- أظن أن الاحتمالين ممكنان!

- الاثنان معًا في الوقت نفسه يا "سيرانو"؟

أخبرتها أن الاحتمال الأول أقوى بالنسبة لي، ويليه الآخر.

- إذًا فقد قمت بالموضوع أولًا، ثم حاولت تجميله وإخفاءه، أليس كذلك؟

أومأتُ برأسي إيجابًا، فانفجرت صارخة فيَّ:

- أيها القذر، أنت تظن أنني قادرة على فعل شيء كهذا حقًّا؟ ثم فيما بعد أضيف له البهارات والإضافات التي تجعل القصة مُشوِّقةً؟

وافقت على هذا كذلك.

- ولهذا كُنتَ خائفًا منِّي للغاية؟ هل كُنتَ دائمًا خائفًا منِّي؟

أومأتُ برأسي مرَّتين.

- ولهذا السبب لم تحبني أبدًا أيها الحقير!

أخبرتها أنني لم أحب أحدًا في حياتي كما أحببتها، فوبَّختني:

- لكن لم يكن لديك الشجاعة لفعل شيء حيال هذا الأمر!

اعترفت لها أنها مُحقَّة، وأنني لم أكن شجاعًا كفايةً.

- على الأقل لديك الشجاعة لتقول الحقيقة.. لكن أي فائدة تُرجى من هذا الآن؟

أخبرتها أنه على الأقل يُظهرني على حقيقتي أمامها.. كأنها تراني بانتصاب لا يحدث إلا مع صبي في الخامسة عشرة من عُمره، انتصاب لا يحدث في سنِّي إلا

أثناء النوم.

جذبت الأغطية وابتسمت قائلة:

- ما الذي تفكر فيه يا "سيرانو"؟

فردت يدها ومدتها نحوي، بينما نحن نتحدث، لأن ما تريد فعله الآن هو الحديث فقط.

- هل تريد معرفة ما حدث حقًّا يا "سيرانو"؟ أتظن أن بوسعي فعل كل تلك الأشياء التي أخبرتك بها لأنك شديد السذاجة، أو شديد الغرور، لا أعرف أي صفة فيهما تنطبق عليك.. كيف يمكنني أن أشرح لك الأمر؟ لم أستطع فعلها يا "سيرانو"، لكنني فعلتها.. أتعرف من جعلني أفعلها؟ "دوروتيا"! هل ستصدقني عندما أقول إنها "دوروتيا"؟ لم تكن مستعدة لتتركني في سلام حتى طلبت من "إلباتو" أن يقتل "ألكاتراتشو" وإلا... ظلَّت ورائي حتى فعلها "إلباتو"، ولم أخبرك.. لكنها كانت "دوروتيا" طيلة الوقت يا "سيرانو"، أتصدقني الآن؟

كانت ثَمِلةً للغاية، وأنا كذلك.. لكن لأن العادة تحكم، فقد قلت لها:

- كُنتِ تريدين قتله، لكنه لم يُقتل بناءً على تعليماتك.. لقد قُتل بالخطأ! ثم عرضوا الجثة على "إلباتو"، وأخبروه أن هذا هو الرجل الذي كنت خلفه، وهذا هو ما أخبرك "إلباتو" به!

رغبتها القوية في الكلام منعتها من الاستماع لما كُنتُ أقوله لها.. فالمونولوج، الذي تحفظه وترددده، يستهلكها، ولا شيء يهمها في هذه اللحظة قدر حاجتها لتدرك أنني أُصدِّقها.

- هذا شيء أريد الاعتراف به لك يا "سيرانو".. لم أكن أنا مَن قتلته، ولم تكن فكرتي.. كانت فكرة "دوروتيا".. كانت هي مَن جعلتني أُضايق "إلباتو" حتى يفعلها، هل تسمعني؟ هي مَن أصرَّت على أن نرى الجثة. أختي الصغيرة "دوروتيا"! ثم ظهرت دعوى قضائية بخصوص جسد "ألكاتراتشو"، فقد أراد أقاربه الحصول

عليه.. وطلب المُدَّعي العام، الذي كان صديق "إلباتو"، تفسيراً منه.. ألف "إلباتو" قصة عن موظف كبير بالجامعة، رافضًا ذكر اسمه، قد طالب بهذا الإعدام. قال إن هذا الموظف قد أُهين لأن "كلوتالدو" لوث سُمعة ابنته!

كانت هذه هي أول مرَّة تستعمل فيها اسم "ألكاتراتشو".. كان "كلوتالدو" هو أحد الأسماء التي قرأتها في الصحف، بينما نطقته هي باعتياد يشير لمصداقية هذا الجزء من قصتها الذي لم يتم التلاعب فيه بعد، فهي تُزيِّف القصص طيلة الوقت دون أن يعوقها شيء.

- الموظف الكبير الذي كان "إلباتو" يتحدث عنه هو أنا طبعًا.. غطى "إلباتو" ورائي بالطريقة نفسها التي غطيت بها وراء "دوروتيا".. دفن المُدَّعي العام، صديق "إلباتو"، الملف، لكنهم أخرجوه ثانيةً عندما رشَّح "إلباتو" نفسه في المجلس التشريعي، فهدَّده صديق عُمره وربيبه بإعطاء الملف وكل شيء آخر للصحافة.. هل يبدو هذا مألوفًا لك يا"سيرانو"؟ هل تعرف أي شيء بخصوص هذا الموضوع؟ هل تصدق أي كلمة مما أقول لك من الأصل؟ أيمكنك أن تطلب لي زجاجة أخرى من الفودكا؟ اضغط فقط على ذلك الزر البعيد.. سآخذ ما تبقَّى من الكوكايين للحمَّام.

عندما عادت من الحمَّام قُلتُ وقرَّرتُ وقد بلغنا قمَّة سُكرنا:

- صحيح أنك أمرتِ بقتل "ألكاتراتشو"، لكن لم يكن هذا سبب قتله، فقد قُتل بطريق الخطأ.. ثم تم إخبار "إلباتو" بأن هذا هو جسد الرجل الذي أراد قتله، وأخبرك "إلباتو" أن مطلبك تم تنفيذه!

- ما الذي تتحدث عنه يا "سيرانو"؟ توقَّف عن لعب دور مؤلف الروايات.. تعالَ وقبِّلني.. قبِّلني وسترى ما ستحصل عليه في المقابل.

كان الفجر يقترب من نافذتنا عندما أخلينا الغرفة.. وبينما كنا نعبر الرِّدهة وأنا أستند على ذراع "ليليانا"، وقعت أرضًا.. من موقعي على الأرض رأيت القذر ذا القميص الأزرق ورابطة العُنق الحمراء وهو يستحثُّني على الوقوف ومقاتلته..

أصبح شعره الآن كأنه مجموعة أشجار مُتشابكة تنتشر دون رادع على قمَّة رأسه.

آخر شيء أتذكَّره هو ذلك الحقير وهو يجلس فوقي ويُلوِّح بمطواة، بينما "ليليانا" تتقدم لتقف حائلًا بيننا.. كانت هناك منشفة فوق ذراعي وبيدي زجاجة انتويت ضربه بها.. اجتذب شجارنا حشدًا من المتفرجين المتصارعين الصَّارخين.

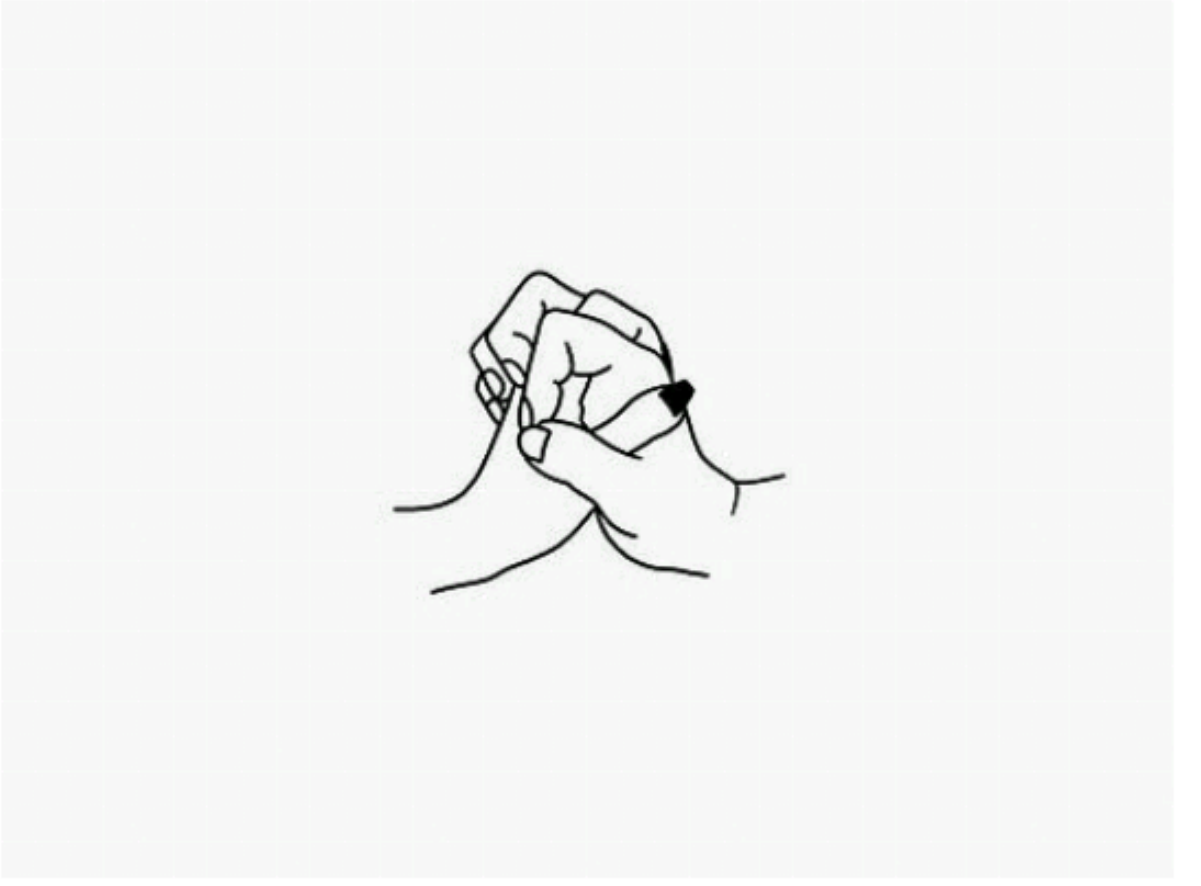

الفصل الثاني عشر

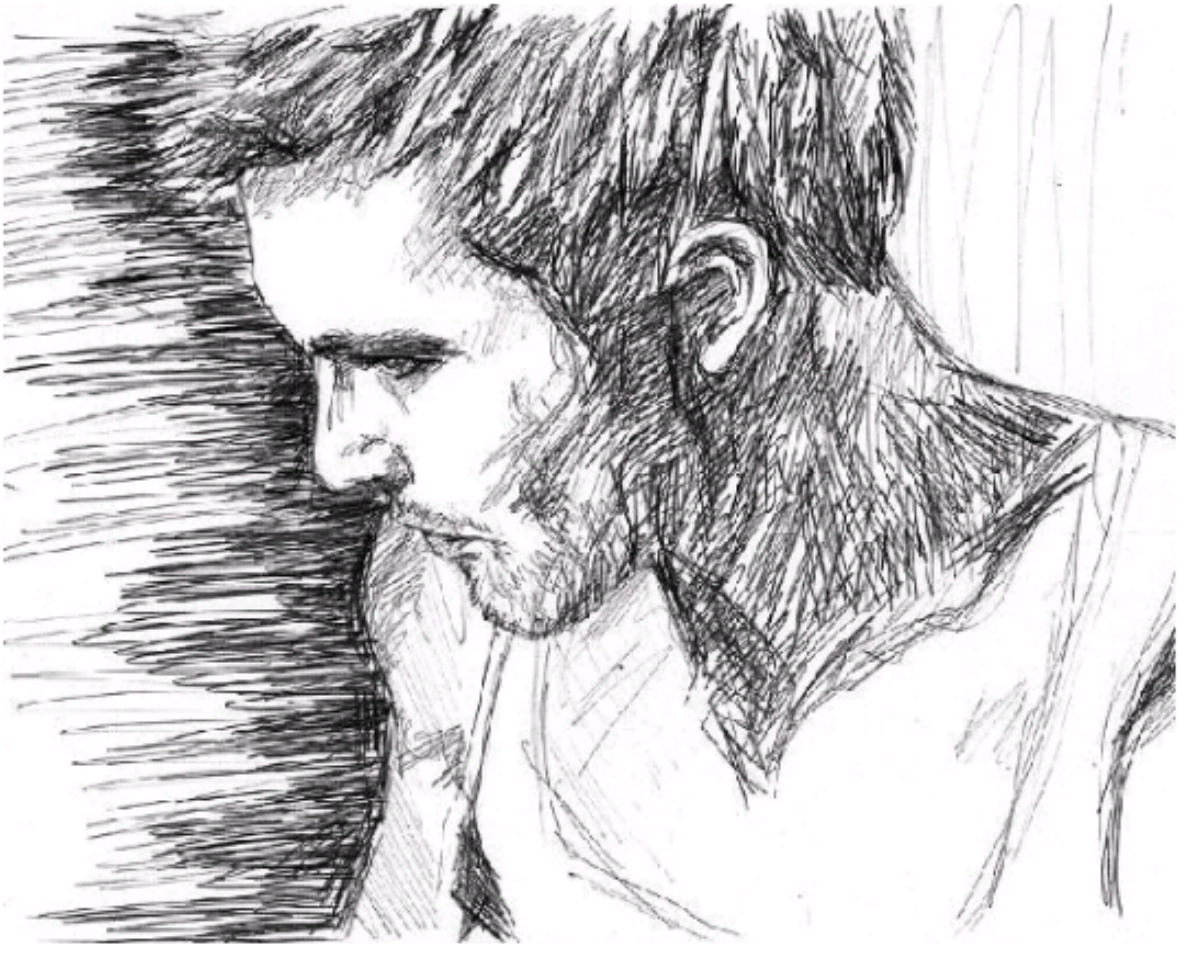

عندما فتَّحتُ عينيَّ، رأيتُ "إلباتو بيرتِس" ينظر نحوي!

كُنتُ في البداية واثقًا من أنني في كابوس، لكنني لم أكن نائماً.. كُنتُ في المستشفى، وقد جلس "إلباتو بيرتِس" على كرسي بجانب فراشي منتظراً استيقاظي، ووراءه كان بوسعي رؤية "ليليانا".

تبخَّر كل أثر للخمر منها، تاركًا انتفاخات ضخمة تحت عينيها وشعراً مُشعثاً في أمسِّ الحاجة للتَّسريح.. كانت تستمع للرَّفيق "فيرناندیس" الذي انطلق يتحدَّث بسرعة دون توقُّف، على الرغم من أن أحدًا لم يضحك، وقد أثار هذا توتُّري، ففي المُعتاد عندما يتحدَّث الرَّفيق "فيرناندیس"، ينطلق مستمعوه بالضحك.. فكَّرت في أن ما يحدث أمامي كابوس، أو هو أولى خطواتي نحو العالم الآخر..

فحسب قول أحد الخبراء، أول ما يراه المحتضرون حديثاً يكون صوراً ملتوية للناس الذين ظهروا بقوة في آخر لحظات حياتهم!

أسرعت "ليليانا" لاحتضاني بمجرد أن استيقظت.. كان حضنها يمتلئ بالعاطفة، لكنني رغم هذا شعرت كأنها طعنتني بسيف! أخبروني فيما بعد أن ألمي كان بسبب جرح مكان طعنة اضطر الجرَّاح لتوسيعها ليطهر أمعائي قبل أن يخيطها ثانيةً. بكت "ليليانا" كأنها ممثلة مسرحية تبكي في مشهد ديني. لا أتنكَّر رؤيتها تبكي بكل هذه العاطفة من قبل. شعرت في تلك اللحظة بأن منظرها الآن هو أفضل مثال لمشهد حزين.. شوَّه الحُزن وجهها وجعلها تبدو خشنة المظهر.

قال "إلباتو" إنه حضر لإخباري بما حدث، فأخبرته بأنه لم يكن هناك من الأصل عندما حدث ما حدث.. بعد هذا سألت عمَّا حدث، فشرحت "ليليانا" أن القذر الذي تبعنا من البار بفندق "آمبيريس" حتى "أوليمباس" طعنني بمطواته.

لحُسن الحظِّ أوقفه "مينيرفا" الوفي وهو على وشك نحر عُنقي، كما أن"ليليانا" قفزت فوقه.. لكن للأسف، وكما يتم وصف كثير من قصص الجرائم، هرب الفاعل بعدها!

أسفل سُرَّتي، امتدَّ جرح بطول خمسة إنشات، حيث اقتحم السن جسدي، وحيث قام الطبيب بإجراء العملية بعدها.. ظللت فاقد الوعي وأعاني من الحمى ليوم كامل، بينما الجرح في حالة من التلوث الشديد.. كُنتُ مُدمَّراً بالكامل، لكن ما الذي يفعله "إلباتو بيرتِس" في حجرة المستشفى التي أرقد فيها موشكًا على الموت؟

كُنتُ شديد الضعف لأتساءل.. آلام معدتي الصارخة كبتت أي جهود منِّي للتحدث.. كُنتُ أسمع معدتي تصرخ: "لا تتحدث أيها الأحمق!".

لكنني كُنتُ راغبًا في التحدث، في السؤال، فعلى سبيل المثال، مَن طلب من "إلباتو بيرتِس" الحضور إلى هنا؟ وجود الرَّفيق "فيرناندس" مُرحَّب به، لكن "إلباتو"؟ مستحيل! كل ما أريده الآن هو رؤية "دوروتيا" وابنها العبقري، أو د.

"بارانكو" هذا.

بكل السُّخرية التي تمكَّنت من تجميعها في صوتي سألت لماذا لم يقم أحد باستدعاء د. "بارانكو"؟ أجابت "ليليانا" بلهجة جادَّة أنها حاولت استدعاءه، لكنه خارج البلدة.. تأكَّدت في تلك اللحظة أكثر من أي وقت مضى أن د. "بارانكو" هذا كان يُعاشر "ليليانا" أثناء جلسات علاجها. سألت إذا ما كان ممكنًا أن آخذ مُنوِّمًا، فأخبروني أن تعليمات الطبيب هي أن أخرج من الفراش وأسير قليلًا عندما أستيقظ.

- تبًّا للسير!

تمتمت بينما "دوروتيا" تظهر عند مدخل الباب كما لو بتأثير سحر ما.

لا أذكر أنني رأيتها بذلك الجمال من قبل، كانت قد اكتسبت سُمرة جذَّابة، وبدت عليها لمحة من الشحوب، وفي عينيها نظرة تأمُّل كأنها أيقونة عذراء "جوادالوبي" الشهيرة. انسلَّت نحو سريري في رشاقة، بينما الضوء يغمرها. كانت غرفتي بالمستشفى كبيرة إلى حدٍّ ما لأكون صادقًا.. كانت هناك نافذة معدنية، وحجرة جانبية صغيرة، ومساحة كافية لتجعل "دوروتيا" تبدو وكأنها تُحلِّق في الهواء، بينما تقترب من سريري. تساءلت حول تكلفة تلك الغرفة ومن سيدفعها. أعتقد أنني سأطلب من زوج "دوروتيا" أن يمنحني قرضًا. هل لدى زوجها أي معلومة حول المرأة التي تعيش داخل جسد زوجته؟

أعرف أنني واهم لأن الفرضية التي راودتني منذ لحظات عادت: لا بد أنني في مرحلة مُبكِّرة من الموت، حيث يقول الخبراء إن الموتى يبدؤون رحلتهم الأسطورية للعالم الآخر.. نأخذ خطوتنا الأولى في تلك الرحلة، بينما نقف على أعتاب الموت، فنشاهد حياتنا وهي تمرُّ أمام أعيُننا.. وبينما أنا في قبضة ذلك الشك الكئيب، شعرتُ بالانزعاج لفكرة أن المجتمعين من حولي، بينما أنا راحل عن تلك الحياة هما تحفتان في صورة أختين، رجل مُتداعٍ يُدعى "إلباتو"، وزير نساء يُدعى د. "بارانكو"، والرَّفيق "فيرناندیس" الذي يجب أن يكون قادرًا على أن ينطق بمزحة تتمكَّن من انتزاع الضحكات من هذا التجمُّع الكارثي.

عوضًا عن هذا، تسبَّب الرَّفيق في جعل الأمور أسوأ بأن همس في أُذني أن "إلباتو" لديه فكرة أو تفسيراً مُحتملاً لما حدث.. قال الرَّفيق إن ما حدث لم يكن مجرد مُصادفة، وإنما بداية شيء ما، و"إلباتو" شديد التأكد منه.. لا أعرف كيف تبدَّد هذا المشهد من أول خطوة في رحلة موتي الخُرافية، أو ماذا جعل هواجسي الغريبة المتعلقة بالصدأ والتعفُّن تختفي، لكن عندما أفقتُ من هلاوسي، شعرتُ بنفسي مُنتعشًا، ولا أحمل عبئًا، ربما يمكنني القول إنني كُشِف عني الحجاب، على الرغم من أنها لم تبد كلمة صحيحة بالنسبة لي أبدًا.. هناك أشياء في الحياة كان بوسعي رؤيتها بوضوح، لكنني لم أستطع رؤيتها باستنارة.. مع إمكانية استثناء جسد "ليليانا" البضِّ اللامع، والآن وقد استيقظت بالكامل، تنضم ذكرى رؤية "دوروتيا" وهي تسري عبر غرفة المستشفى الخاصة بي للقائمة .

كانت غرفة المستشفى التي وجدت نفسي بداخلها في قمَّة السوء، مظلمة، ورتيبة، وذات لون واحد.. كان الوقت بالمساء، والوهج الضعيف الصادر عن تلك الأضواء التي يتركها الأطباء والممرضات بدورية المساء هو الضوء الوحيد الموجود بالمكان، مجرد فتات من الضوء الشحيح التي تراها بغرف المستشفيات المقرفة بجميع أنحاء العالم.

كانت شفتاي جافتين، وعُنقي يحرقني، وكانت عيناي منتفختين وجافتين كذلك.. شعرت كما لو أن هناك مَن يفتحهما بقوة بكمَّاشة، بينما تحيط بكرتي العينين سائل سام.. لو لم أكن ميتًا، لتمنيت أن أكون كذلك!

في هذه الظلمة المشابهة للموت كُنتُ، لحُسن الحظِّ، في غرفة لي وحدي. كانت "ليليانا" جالسة على كرسي مجاور لفراشي، لكنها لم تكن نائمة.. كانت ترقد على ظهرها مفتوحة العينين تُحدِّق في السقف.. لم تعرف أنني استيقظت.. ربما كانت تتلو صلاة ما.. سألتها لو كانت تصلي.. بمجرد سماع صوتي اعتدلت قائلة:

- لا.. لم أكن أصلي!

سألتها:

- هل رحل الجميع؟

- من تعني بالجميع؟

- "إلباتو"، الرَّفيق، ود. "بارانكو"، و"دوروتيا".. هل أتى "ألكاتراتشو"؟

أجابتني:

- أنت تهذي! لا تزال تهذي، وأنا كذلك...

طلبت منها أن تحكي لي عن هذيانها.

- إن ما يزعجني يا "سيرانو" ليس الهذيان، وإنما الواقع!

سألتها أي واقع تقصد.

- أنني أُدمِّر كل شيء ألمسه!

- وكل شيء تلمسينه يتضمن ماذا بالتحديد؟

- كل شيء يا "سيرانو".. انظر لنفسك، و"إلباتو"، و"روبين"، و"دوروتيا".. انظر لما تورَّطت فيه "دوروتيا"!

بدت مقتنعة أن "دوروتيا" لعبت جزءًا في دخولي للمستشفى.. لم أضطر لألح عليها لتخبرني بسبب اقتناعها بذلك.

- كل الأشياء السيئة التي فعلتها تطاردني يا "سيرانو".. لا تنفك تعود، غير راغبة في الرحيل عنِّي.. أنت الشيء الجيد الوحيد الذي يعود.. وانظر لحالك الآن، راقد ببطنك وقد شقَّه قذرٌ كان مُعجبًا بي.. كل ما أريده هو أن أموت يا "سيرانو"!

أخبرتها أنها تحتاج للرحيل من المستشفى أولًا قبل فعل هذا، فضحكت، لكن بالنظر لمنظرها، لم تكن ضحكة حقيقية.. لقد وصلنا لنهاية مسدودة أخرى، لكنني لن أدع هذا يزعجني الآن.. آسرتني الأمور الأخرى التي قالتها عن "إلباتو"،

و"روبين"، و"دوروتيا".. لم يهمني دمار "إلباتو"، واعتبرته حادثة نادرة تمثل العدالة الإلهية.

لكن ليس هذا هو الحال مع "روبين"، ولا مع "دوروتيا".. أعرف أن "روبين" قد أصبح سكِّيراً غريب الأطوار، ولم يصل بمهنته لشيء، لكنني لم أكن أعرف أن "ليليانا" لها يد في ضياعه.. سألتها كيف انقلب حال "روبين"!

- كُنتُ أرفض طلبه يا "سيرانو".. قابلت طلبه بالرفض دومًا، لكنه لم يتوقف عن الطلب.. في أحد الأيام حاول أن يسمم نفسه بـ"نيمبوتال".. لم يمُت، لكنه حوَّله للحطام الذي أصبح عليه الآن.

شعرتُ بوجود ثغرة في إجابتها.. طلبت منها أن تشرح أكثر، وقد فعلت.. قالت إن "روبين" احتاج إلى حبها!

قالتها بتلك الطريقة بالضبط:

- احتاج إلى أن أحبه!

شعرتُ بأنها كاذبة، لكنها تقول الحقيقة في الوقت نفسه، ولا أفهم كيف!

سألتها إذا ما كانت قد لبَّت رغباته.

- ولا مرَّة!

سألتها عمَّا إذا كانت قد سمحت لـ"روبين" بمُعاشرتها!

حدَّقت في السقف.. سألتها ثانيةً عمَّا إذا كانت قد سمحت لـ"روبين" أن يُعاشرها.

- مرَّة واحدة!

ثقتها بأن تشارك مثل هذا الموضوع أشعرتني بالإثارة!

استطردت:

- ثلاثة أيام في الأسبوع المُقدَّس.. كانت ثلاثة أيام فقط ولم أفعلها ثانيةً يا

"سيرانو".. أتذكَّر كذلك ذهابي أثناء الأسبوع المُقدَّس.

كانت أمها كالعادة تقضي الأسبوع المُقدَّس في "موريليا". سألتها عمَّا إذا كُنتُ بديلًا لـ"روبين"!

- لقد جُنَّ عندما عرف بأمرك!

كرَّرت سؤالي:

- هل كُنتُ بديلًا لـ"روبين"؟

- كُنتَ دومًا نفسك يا "سيرانو" ولست بديلًا لأحد.. بالبداية كُنتَ أنت و"روبين" في بالي.. لكن فيما بعد تغيَّر الحال.. عندما اكتشف "روبين" أمرك، جُنَّ جنونه! لكنني لم أسمح له بأن يُعاشرني مرَّة أخرى.. ثار جنونه لأنني بالسابق كُنتُ أسمح له بفعلها، ثم توقَّفت بعد هذا.. لا أعرف ما الذي أتحدث عنه.. أشعر بأنني تائهة.. هذا المستشفى يشعرني بالمرض.. لا شيء يبدو منطقيًّا هنا، ولا شيء يبدو حقيقيًّا كذلك.

سألتها عمَّا إذا كان لديها مزيد من الاعترافات لتقولها الآن بما أنها أخبرتني كل شيء.. سألتها عمَّا إذا كنا قد وصلنا أخيراً لأعتاب مدخل سر "دوروتيا".

– "دوروتيا" هي سرِّي الدائم يا"سيرانو"..

طلبت منها أن تخبرني ذلك السر!

أكملت "ليليانا" بشكل عفوي:

- فعلت بالفعل يا "سيرانو".. كل ما حدث اليوم كان بسبب "دوروتيا"، التي صارت أشبه بعرَّافة، وفعلت كل شيء ضروري لتجعل الأمور تسير على هواها.. أختي تدفعني للجنون يا "سيرانو".. لطالما دفعتني إلى الجنون!

- أيمكنني إخبارك بالحقيقة؟ كانت "دوروتيا" تحب "ألكاتراتشو". كان عشيقها الناضج كبير السن، تمامًا مثلما كان "إلباتو" بالنسبة لي.. عشقته "دوروتيا".

ذكرتها ألا تقلب الأحزان بإثارة موضوع "إلباتو" .

- كان "ألكاتراتشو" يحب "دوروتيا" كذلك يا "سيرانو".. لم يُسئ مُعاملتها أبدًا، بل كان يعشقها!

سألتها عن سبب كراهية "دوروتيا" له.

- لأن "دوروتيا" هي "دوروتيا" يا "سيرانو".. لأن "ألكاتراتشو" خانها، ولم تسامحه أبدًا لفعل هذا!

سألتها عن سبب شعورها بأنها مسؤولة عمًّا حدث لـ"ألكاتراتشو" و"دوروتيا".

- لأنني أمرت بقتله يا "سيرانو"، لا تكن غبيًّا.. أمرت بقتله هو، وأخذتها هي لأولى حفلاتها مع الرجال الأكبر سنًّا.. أردتها أن تتعلم كيف تسير الدنيا في سن مبكرة، وأخذتها للحفل الذي قابلت فيه "كلوتالدو"، بسببي أنا قابلت "كلوتالدو" وسقطت في شباكه بقلبها وروحها.. ثم في أحد الأيام صدَّته، وحرص "كلوتالدو" على الانتقام منها بأن تراه برفقة فتاة أخرى.. لم تستطع "دوروتيا" أن تسامحه أبدًا لفعل هذا، فأخبرتني أنا و"إلباتو" أن "كلوتالدو" عاملها كعاهرة وأهانها.. قامت بالتهويل والمبالغة وأخبرتني أنها ستقتل نفسها! لم يكن لديها أدنى نية لقتل نفسها، لكنني طلبت من "إلباتو" أن يتخلص من " ألكاتراتشو"، وأنت تعرف بقية القصة أيها القذر، فتوقَّف عن تعذيبي بها!

أعتقد أن التعبير البادي علي وجهي سلب من قصتها كل الميلودراما الموجودة فيها، فقد أرهق أعصابي كون "ليليانا" متأثرة بالميلودراما أكثر من التراجيديا، وقد جعل هذا شعوري نحوها أكثر ضحالة، وأكثر سطحية.

ذلك المستشفى يدفعني للجنون!

رُحتُ في النوم وحلمت بـ"دوروتيا" وهي تنساب نحوي، ثم همست في أُذني أنها تريد أن تفعل معي مثلما فعل "روبين" مع "ليليانا".. بينما في الخلفية يحوم "ألكاتراتشو" الشاب، سليمًا من الرصاصات التي دمَّرت وجهه في الحقيقة.. خلف

"ألكاتراتشو" الشاب الذي لا تغطيه الدماء ظهر القائد "نيري" بطلعته الجافة وهو في خضم محادثة كريهة مع "إلباتو فيرتير".

الجو حار بالصيف كأننا بجهنم، ثم هبَّت نسمة من الهواء البارد آتية من جهة البحر، أو ربما كان مصدرها مروحة وجَّهها أحدهم نحو أعناقنا لإنعاش ذاكرتنا.. أدركت أنني ما زلت أُهلوس.. لا أعرف كم من الأحداث التي أذكرها حدثت فعلًا وكم منها مجرد تخيُّلات مجنونة من أحلامي.. كل ما أنا متأكد منه أنني استيقظت ببعض القناعات التي لم تكن لديَّ قبل أن أخلد للنوم، وأسوؤها هي معرفة أن "روبين"، مثلي بالضبط، قد نام مع "ليليانا" أثناء الأسبوع المُقدَّس!

تركت المستشفى وقد انحفرت صورة "دوروتيا" على جبيني.. الكابوس الذي راودني بالمستشفى بخصوص "إلباتو بيرتِس" تحقق بعدما خرجت.. بقيت أسبوعين بالمنزل كفترة نقاهة، واستمرت "ليليانا" بتناول الأقراص التي تضبط مزاجها لأسبوعين.. اضطلعت بدور الممرضة بكياسة، أو بمحاولة منها للكياسة على الأقل.. اعتنت بي باهتمام وعناية لا يصدران إلا عن راهبة، بافتراض أنها انهزمت تمامًا أمامي وأمام نفسها.

بعد ظهر أحد الأيام، وبينما الشمس التي بدأت رحلتها نحو الغروب ترسل أشعَّتها لتدفئ النوافذ، قام الرَّفيق "فيرناندیس" – بعد موافقة "ليليانا - بإحضار "إلباتو بيرتِس" لشقَّتي، وعلى حد قول الرَّفيق، فقد طلب "إلباتو" أن يطلعني على سر، والأمر يرجع لي في أن أسمع وأقرر.. ولأن الرَّفيق من نقاط ضعفي، لكن ليس كما كان "إلباتو" نقطة ضعفه، فقد استسلمت موافقًا لما بدا لي اتفاقًا مفروغًا منه.

أحضر "إلباتو" معه مجموعة من الأوراق حملها بذراعه اليُمنى، وقد وازنها بالكاد على فخذه. تركت "ليليانا" الشقة بحذرها المعتاد، وغالبًا باتفاق مسبق مع الرَّفيق "فيرناندیس".. ظل الرَّفيق - متظاهراً بعدم ملاحظته لرحيلها - لدقائق، قبل أن تظهر "ليليانا" ثانيةً عند الباب وتشير له بإصبعها ليرحل هو الآخر.

تركاني بمفردي مع "إلباتو بيرتِس"، بصلعته المليئة بالنَّمَش، وأنفه غريب الشكل،

وكرشه العظيم، وشفتيه عديمتي اللون بسبب الربو أو انتفاخ الرئة اللذين عانا منهما مُسبقًا.

وضع "إلباتو" حمله على المنصدة الموجودة بالردهة الصغيرة الموجودة بين المكتبين الملكيين، واستعدَّ لإخباري بما يريد.. قاطعته قبل أن يتمكن من قول كلمة واحدة:

- أنا موافق على سماع ما لديك لتقوله بشرط أن تخبرني بكل شيء تعرفه عن "ألكاتراتشو" و"دوروتيا"!

الطريقة التي اختبأ بها في كرسيه أوضحت كم الخوف الذي لا بد أنه يعيشه، أما المحادثة التي تلت هذا فكانت بلا معنى شخصي لي، على الرغم من كون "إلباتو" قد أخبرني أثناءها بعض الأشياء المهمة التي تستحق إدراجها في هذه القصة.

قال "إلباتو" إن الأوراق التي وضعها على المنضدة تلخص تحقيقاته بخصوص ربيبه السابق "ريكاردو أنتونيس".. أكد أنه لا يتجاهل سؤالي بخصوص "ألكاتراتشو" و"دوروتيا"، ولا ينتوي فعلها.. لقد قضى سنوات يجمع فيها أدلَّة على الجرائم التي ارتكبتها الشرطة أثناء الفترة التي قُتل فيها "ألكاتراتشو"!

حسب كلامه، كل شيء يحدث الآن، حتى فترة نقاهتي هذه، له جذوره في الماضي البعيد.. كل هذا جزء من خطة "أنتونيس" للانتقام.. سألته:

- ولماذا سيكون "أنتونيس" قلقًا بخصوص تصرفات الشرطة في السبعينيات عندما كان مجرد موظف مبتدئ في حبال بيروقراطية تطبيق القانون؟

قال "إلباتو" إن تحرياته أثبتت أن "أنتونيس" كان، ولا يزال، من أكبر مؤيدي ما كان أفراد الشرطة يُعرفونه بلفظ "نظافة اجتماعية".. هذا اللفظ يشير للطرق التي كان يتم بها حل قضايا التشهير أو العنف بالماضي.. عند طلب الضحية المزعومة، كان رجال الشرطة القُدامى يقومون بالاعتناء بالمعتدي المزعوم عن طريق تصفيته! قال "إلباتو" إنه يملك إثباتًا على كون العديد من القضايا قد تم

حلها بتلك الطريقة، متضمنة بعض القضايا الحديثة التي أنهاها "أنتونيس" باللجوء لـ"النظافة الاجتماعية".

ما فعله "أنتونيس" لم يكن مجرد بقايا سوء إدارة من الماضي، لكنه جزء من جهاز إجرامي لم يتم تفكيكه أبدًا! قال "إلباتو" إنه قد أخطأ بإفضائه بما عرف لـ"أوليباريس"، والذي ذكرها بحديث مازح مع "أنتونيس".. بالنسبة لـ"أوليباريس" لم يكن الموضوع أكثر من قول ملحوظة لصديق قديم، باع بالسابق خدمات تجسُّسية للشركة التي كان يترأسها "أوليباريس"، وهو المكان نفسه الذي عثر فيه على وظيفة لمعلمه القديم "إلباتو".. وكان رد فعل "أنتونيس" لما سمعه هو أنه أمر بقتل "أوليباريس"!

أضاف "إلباتو":

- مات "أوليباريس" بعد حديثه مع "أنتونيس" ببضعة أسابيع.

ثم أضاف أن موت "أوليباريس" نفع "أنتونيس"، بكونه تحذيراً شرسًا لـ"إلباتو".

سألته:

- لماذا سيرغب "أنتونيس" في قتل "أوليباريس" وهو مجرد رسول، ويتركك أنت، بينما أنت التهديد الحقيقي بالنسبة له؟

شرح "إلباتو" أنه و"أنتونيس" قد راقبا بعضهما البعض لسنوات، و"أنتونيس" يعرف أن "إلباتو" لن يكون هدفًا سهلًا للقتل.. ولأن "إلباتو" عرف بما قاله "أوليباريس" لـ"أنتونيس"، فقد وضع "إلباتو" أوراقه في مكان آمن، وهدَّد "أنتونيس" أن كل ما فيها سيصبح مشاعًا للجميع لو أصابه مكروه!

هكذا تصرَّف "أنتونيس" مع "أوليباريس".. وفي اليوم التالي للجنازة حرص "إلباتو" على أن يُعرف "أنتونيس" أنه تلقَّى الرسالة، ووافق على شروطه بالبقاء صامتاً.. فعل هذا من خلال نشر نعي يحمل رسالة مُشفَّرة بين كلماته، كرَّرها "إلباتو" أمامي كلمة بكلمة، وقد مسحتها من مفكرتي بمجرد سماعها.. وصلنا

للنقطة التي دخلت أنا فيها للمشهد، حسب قول "إلباتو".. قال إن "أنتونيس" قد تم تحذيره عندما سمع بأنني سألت الرَّفيق "فيرناندیس" لو كان يعرف مَن يستطيع أن يحضر لي ملف "ألكاتراتشو".. طلبي كان صعبًا على "فيرناندیس"، لهذا لجأ لـ"أنتونيس"، الذي تخيَّل وقتها أن "إلباتو" قد خرق اتفاقهما، وخشي أنه ينتوي استخدامي، وأنا الكاتب الذي لا يعرف شيئًا عن الموضوع، كفتيل ليتسبب في فضيحة ضخمة.

قال "إلباتو":

- كان لديك أسبابك للسؤال عن "ألكاتراتشو"، لكن "أنتونيس" شعر بأنني – خصوصًا أنه أبعد "أوليباريس" عن طريقه بالفعل - كنت أدفعك أنت نحوه!

سألته إذا ما كان يعتقد أن طعني بالسكين كان بأوامر من "أنتونيس"، وعمًّا إذا كان ذلك الهجوم وسيلة لتحذيري من التمادي.. كانت كل النقاط تتناسب مع بعضها البعض في ذهن "إلباتو" دون شك.. كل شيء يتوافق مع بعضه بشكل مستحيل، لدرجة أن "إلباتو" لا يمكنه أن يكون قد اختلق كل هذا.. بمعنى أنه غالبًا يحكي ما حدث فعلًا، لكن هذا لا يمنع احتمالية كونه يحكي الأمور بطريقة تجعلها تبدو أسوأ مما هي فعلًا، لأن "إلباتو" حاول بشدة أن يجعل التفاصيل التي يحكيها مُرعبة قدر الإمكان.. كانت استطراداته الكثيرة تزعجني.. كما أن تردُّده ومُراوغته بالكلمات جعلا حديثه يبدو خاليًا من النقاط المُثيرة للشكوك، بينما هو يتظاهر بالصدق.. لم أستطع إخفاء التشكُّك الظاهر على وجهي.. أخرجت نفسي من هذا المأزق بقولي إنه لم يُجب بعد عن سؤالي المتعلق بـ"دوروتيا" و"ألكاتراتشو"، وهنا تراجع "إلباتو" نحو قوقعته.. نظرت في عينيه مباشرة ببرود مقصود للضغط عليه، دون استخدام كثير من الكلام.

وصل إليه مقصدي فقال:

- كُنتُ موجودًا في تلك الليلة بالمكان الذي مات فيه "ألكاتراتشو"!

نظر نحو السقف متأمِّلًا، ثم اعتصر يديه معًا مستطردًا:

- أخذوا بعض الصور لي.

مسح بيده اليُسرى على صلعته، ثم أتبعها بيده اليُمنى مُكمِّلًا:

- ولاحقًا استخدموا تلك الصور في الضغط عليَّ!

نظر نحو السقف، ثم إلى الأرض.

- لابتزازي بالمال ومَن الشخص الذي كان موجودًا معي!

شعرتُ بأن لديه مزيدًا ليقوله، لكنه ليس واثقًا مما إذا كان يجب أن يقوله.. سألته مَن كان معه وقتها، وراقبته وهو يزداد ارتباكًا من نظرتي الباردة التي لا ترى ما أمامها، والتي سلطتها عليه، وهي النظرة نفسها التي أرعبته مرَّة قبلًا، وتحمل تهديدًا بأن تصبح الأمور خطرة على صحته لو لم يقل الحقيقة التي أطلبها.

نهض واقفًا على قدميه ودعك مُؤخِّرته المُنكمشة بكلتا يديه، فانزلقتا بسهولة على بنطاله الواسع الذي لم يعد جسده يملؤه كالسابق، قال:

- ما يجب أن أُخبرك به هو أن الشخص الذي كان معي لم يكن "ليليانا".

ركَّزت نظري عليه حتى لا يجرؤ على النظر بعيدًا.

عرف من نظرتي أنني آمره بأن يستمر بالحديث، فبدأ يتعرَّق كما لو كان قد تم الإمساك به ووضعه تحت وهج مصباح سقف مُسلَّط على وجهه مباشرة.

- كانت "دوروتيا"!

كان حدسي صحيحًا.. شعرتُ بموجة من الابتهاج تسري بداخلي، بادئة من ظهري المريض، ثم تفيض فتغمر صدري.. انطلق "إلباتو" يسرد المزيد:

- رؤية "دوروتيا" في ذلك المكان كانت كافية لتجعل شعرك يقف، أؤكد لك هذا!

كان مأخوذًا بالمشهد الذي يصفه وهو يروح ويجيء أمامي.

- نظرت "دوروتيا" مرَّة واحدة لجثة "ألكاتراتشو"، ولا يمكنك أن تتصور ما فعلته..

أدارت رأسه بقدمها لتتمكن من رؤية جانب وجهه، ثم أدارته ثانيةً لتتمكن من رؤية وجهه كاملًا! رأيت"دوروتيا" و"ألكاتراتشو" معًا، فقد خرجنا أنا و"ليليانا" معهما.. ورأيت أن حب "دوروتيا" له لا يقل عن حب "ليليانا" لي.. لا أقصد التباهي، لذا فلا تشعر بالضيق مما أقول، لكن هذا كان حال الأمور وقتها.. لم أفهم لمَ وقعت مثل هاتين الأختين الرائعتين في غرامي أنا و"كلوتالدو".. لا بد أن هناك شيئًا خاطئًا في هذا العالم لتحدث فيه مثل تلك الأشياء، لكنها تحدث على أي حال، وقد رأيت أمثلة مشابهة في كل مكان.. ذلك النوع من الفتيات لا يستطيع الانتظار لرؤية العالم، ماذا يمكنني أن أقول؟ لقد أحببناهما، واستغللناهما، لكنهما أرادتا أن نستغلَّهما.. لا تغضب، فاستغلالهما كان يُثيرهما. أرادتا أن تتحرَّرا من كل القيود، وأن تفقدا طهارتهما.. وكانت خسارتهما مكسبًا لنا!

بدا عليه الاختناق مع ملحوظته الأخيرة، واحمرَّ خدَّاه من الانفعال، وامتلأت عيناه بالدموع.. طلبت منه تقليل التعليقات وإخباري بمزيد من الحقائق، فقال إن "ألكاتراتشو" قد قُتل عند الظهر، وأرسل "أنتونيس" صور جسد "ألكاتراتشو" له عصرًا، وأخذها هو لـ"ليليانا" لتراها في المساء نفسه!

أرتها "ليليانا" لـ"دوروتيا"، التي طلبت أن ترى الجثة!

أصدر "أنتونيس" أوامره لـ"نيري" ليأخذهما لرؤية مكان الحادث.. وبينما هما ينظران للجثة، تمكَّن "نيري" من التقاط صورتين، أرسلهما "أنتونيس" إلى "إلباتو"، الذي أتلفهما.. بعدها بسنوات عندما ترشَّح "أنتونيس" أمامه للحصول على كرسي في المجلس التشريعي في "مكسيكو سيتي"، أرسل له "أنتونيس" نسخًا من الصورتين وهدَّده بإرسالهما للصحافة وإخبارهم كيف تم التقاطهما، ما لم ينسحب "إلباتو".. هكذا خرج "إلباتو" من السباق!

كانت هذه هي أسوأ غلطة ارتكبها "إلباتو" على حد قوله، فقد أظهر خوفه لـ"أنتونيس". فاز "أنتونيس" في الانتخابات وامتهن السياسة، وهو ما كان ينبغي على "إلباتو" القيام به.

لكن نظرًا لمزاياه المشكوك فيها، لم يمتهن "أنتونيس" السياسة لفترة طويلة..

بعد أن ترك المكتب، ابتزَّ "نيري" مرَّة ثانية "إلباتو" بالصور التي كان يحتفظ هو الآخر بنسخة منها.. كان يطمع في بعض المال.. وقد دفع له "إلباتو" المال ليضمن صمته لمدة عشر سنوات دون أن يعرف هل كان يبتزُّه لصالح نفسه أم لصالح "أنتونيس".. لفترة طويلة اعتقد "إلباتو" أنه سيكون كـ"أنتونيس"، ليذكره مَن هو المتحكم الحقيقي في الأمور ومَن يملك نقاط الضغط.. قرَّر أخيراً أن ينفذ انتقامه عن طريق التحقيق في الفترة التي كان فيها "أنتونيس" مجرد لاعب صغير في عالم تنفيذ أحكام القانون!

أراد أن يُنهي الخلاف بينهما عن طريق ممارسة السياسة، لكن بطريقة مختلفة.. يقول إن تحذير المجتمع من الناس المشابهة لـ"أنتونيس" مسؤولية سياسية، وأنه اكتشف أن "أنتونيس" لا يزال يمارس عمل الشرطة بالطريقة القديمة.. فبالنسبة له، قتل بعض الخارجين عن القانون يُعتبر "تنظيفًا اجتماعيًّا"!

قال "إلباتو" إن تحقيقه ليس كاملاً.. وإن الملفات، والتي وضع نسخة منها على منضدتي، لن تصمد في أي محكمة.. فسوء الإدارة الذي تصفه وتثبته لا يتتبَّع القوانين والقواعد المستخدمة حاليًا بدقَّة كافية.. وغالبًا سيتم رفضها لأسباب تقنية.. وهذا هو السبب الذي جعل "إلباتو" يبقي تحقيقه سرًّا.

كان جادًّا حول ما يفعله.. لم تكن لديه أي نية للإعلان عن معلومات ليست كافية لإقامة دعوى.. لا يريد أن يرفع اتهامات تبدو قوية في الصحف، لكن واهية لو عُرضت على قاضٍ.. يريد أن يقوم بتدمير "أنتونيس" بالكامل، وليس تشويه سُمعته فقط.. حكى لي كل هذا بتردد، وسرعان ما تورَّط في محاولات لمحو أي شكوك قبل أن تُراودني حتى.

كفاءة من لديه من معلومات لا بأس بها، لكنني لا أظنه يملك الإرادة الكافية ليستغلَّها كما تستحق، فالخوف يقيده.. لقد فَقَدَ منذ فترة طويلة الإحساس بقُدرته على الإفلات من العقاب والإيمان ببراءته، واللذين يحتاج إليهما للثبات في وجه المحن المشابهة.

بدا أقل رغبة في خوض معركة مع "أنتونيس"، ويفضل لو كان خصمه مستعدًّا

للتوصل لاتفاق معه.. الآن، كما بالماضي، لا يعرف ما إذا كان يريد الشجار أم المفاوضة، وهذا بالتأكيد سيجعله غير قادر على فعل أيهما، سألت لو كان "نيري" قد أعطى صور "ألكاتراتشو" لـ"دوروتيا"، ولو كان قد حاول ابتزازها هي الأخرى.. وبينما كُنتُ أقول ذلك، أدركتُ أن الأفكار الوحيدة التي تدور برأسي كانت عن "دوروتيا".

أجاب "إلباتو":

- لا أعرف.

للمرَّة الأولى والوحيدة في ذلك الرجل شعرتُ بأنه يقول الحقيقة، وهو ما جعلني أتأكَّد من أنه لا يعرف ما أُريد التوصُّل إليه.. عندما أتى كل من الرَّفيق "فيرناندیس" و"ليليانا" لشقَّتي بنظرات قلقة على وجهيهما، خطر لي أن هناك خيطًا رفيعًا، لكن غير قابل للقطع يفصل ما بين أفراد العائلة المقربين من جهة، والأصدقاء والأحبَّة من جهة أخرى.. هناك كذلك خيط رفيع داخلي يفصل بين كل مرحلة عمرية والأخرى: يفصل فترة الشباب من نهايتها، ويفصل كذلك بينها وبين كل تغيير يحدث بعدها، حتى لا يعود خيط الحياة الرفيع نفسه قادرًا على حملنا كلنا معًا.

الفصل الثالث عشر

sps0067 fotosearch ©

اعتنت "ليليانا" بي فأصبحت قويًّا كفاية لأستحمَّ بمفردي، أسير في الشقة وحدي، وأستطيع الخروج للشارع دون مُساعدة .

عندما التأم الجرح تمامًا أخذتني خارج المدينة لمرَّة أخيرة.. معها تكون دومًا المرَّة الأخيرة.. بحلول الفجر كنا داخل غرفة في حانة "تلاكوكويميكتال" الأسطورية، وكنا ثملين للغاية.. سمحت لي بأن أحظى بجسدها لبقية الصباح، وقد تمكَّنتُ من استغلاله على الوجه الأمثل، قبل أن أنام طيلة فترة الظهيرة.

في تلك الليلة، وجدتها تجلس في الصالة تنظر خارج النافذة. كانت أنوار مصابيح الشارع الصفراء تُنير نصف جسدها ووجهها.. جلست بالقرب من نصف جسدها الواقع تحت سطوة الظلام.

- يجب أن تدعني أرحل يا "سيرانو"!

سألتها:

- إلى أين؟

- للجحيم يا "سيرانو"، للجحيم!

ارتجف أحد جفنيها بينما تتحدث.. لأول مرَّة في حياتي، أو ربما كانت أول مرَّة أتذكَّرها على تلك الحالة، بدت لي أكثر جاذبية من فرط هشاشتها، أو ربما أقل جاذبية وأكثر هشاشة.

إنها المرأة التي أحببتها دومًا، والمرأة التي لا أستطيع التوقف عن حبها، لكنها بدت لي فجأة هشَّةً، وبهشاشتها هذه بدت لي أقل جدارة بالحب، وأقل خطورة.

كما هو الحال مع أي زوجين، كانت هناك بعض الأشياء التي يجب أن نحلَّها معًا، وهو أمر اعتدت فعله.. الأمر المختلف هذه المرَّة هو أن رغبة "ليليانا" الوحيدة كانت أن ترحل، ولم أطلب شيئًا مقابل أن أتركها ترحل.. لكنها كانت تملك خطة.

هل أُريدها أن تخبرني إيَّاها؟

لقد توصَّلت لاتفاق مع "دوروتيا"، ستعود للمستشفى وتعود لتناول الأدوية، وتحت تأثير الأدوية ستتعلم كيف تتعوَّد على الصعاب مع نفسها.. وعندما يتم إطلاق سراحها من المستشفى، ستعود لمنزل "دوروتيا"، وستقومان معًا بافتتاح متجر بداخل فندق كالذي أدارته "ليليانا" لبضعة أعوام في "أنتيجوا".. هل أخبرتني عن فندقها في "أنتيجوا" قبلًا؟

في إحدى الليالي بينما كانت ثَمِلةً تسبَّبت في احتراقه، ثم قرَّرت أن تصلح من نفسها.. ابتسمت في خُبث، فهي بالتأكيد لن تتسبَّب في احتراق فندق آخر.. ستعيش في البدء في بيت "دوروتيا"، ثم ستنتقل للفندق، كما حدث في "أنتيجوا". سألتني لو كُنتُ أُوافق أن أعيش بتلك الطريقة، أم هل سيتسبَّب لي هذا الأمر بتذكُّر زيجاتي السابقة؟

أخبرتها أن خطتها ذكَّرتني بهم بالفعل.. توقَّفت لتقول إنها لا تُريد الزواج منِّي.. تُريد الزواج من "دوروتيا" والفندق للسبب نفسه الذي جعلني أتزوَّج السيدتين اللتين تزوَّجتهما: لتحصل على السلام مع نفسها.

هي تعرف أن كل الزيجات- حتى زيجاتي وزواجها هي من "دوروتيا"- سرعان ما

تتحطَّم ويعود الشريكان لحالة الحرب.

الأدوية مجرد طريقة أخرى لترتاح وتستجمع قُوَّتها للمعركة التالية.. وأعتقد أن هذا يستدعي ذلك التشبيه الخاص بثكنات الشتاء: كان هناك جيشان في خضم حرب لا تنتهي، باستثناء عندما يستريحون في الشتاء، ويعود كل جيش لثكناته.

أصرَّت على أن هذه هي الطريقة التي ستتمكَّن من التأقلم بها مع "دوروتيا".. ستعيشان معًا طالما الأدوية تحفظ السلام بينهما.. وعندما لا يصبح بوسع "ليليانا" تحمُّل الأدوية أكثر، وتتوقَّف عن استعمالها لتتمكن من أن تصبح نفسها ثانيةً، ستترك بيت "دوروتيا" وتعدها ألا تعود ثانية إلا بعدما تنتهي الحرب.. كلتاهما تعرف أن الحرب ستستمر.. وعندما يحدث هذا، يجب أن تكون "ليليانا" قوية كفاية لترحل وتعود، أو ترحل ولا تعود ثانيةً. أخبرتها "دوروتيا" أنها لو كانت ترغب في أن تموت، فالأفضل أن تموت في مكان آخر، وليس بمنزلها، حيث هي وابنها!

كان هذا هو شرط "دوروتيا" الوحيد، وقد أقسمت "ليليانا" على احترامه. سألتني عمَّا لو كُنتُ أُشارك "دوروتيا" شرطها عندما يحين الوقت لتنتقل معي، فقلت لا، لستُ أملك شروطًا.. سألتني عمَّا لو كان بإمكانها عندما ينتهي السلام بينها وبين "دوروتيا"، أن تأتي لتبدأ حربًا معي. أعرف أن الأختين غالبًا تعتبرانني خصمًا ضعيفًا سهل الإغراء، وهو ما يتناسب مع مخططهما، لكن هذا لم يجرح مشاعري. قلت لها إن بوسعها أن تأتي متى رغبت، وسيكون الأفضل لو لم تكن تتناول الأدوية وقتها.

أنهينا اتفاقنا بأن زحفنا عائدين للفراش في حزن لم يتركنا نتحدث أو ننام. مفاجأة اليوم التالي كانت أن "دوروتيا" زارتنا.. أتت لتأخذ "ليليانا" وتعيدها إلى المستشفى.

انتصب شعري خوفًا للتفكير في أن د. "بارانكو" سيحظى بفرصة أخرى مع "ليليانا"!

- لم أكن أُبالغ يا "سيرانو" عندما أخبرتك بأنك ستندم.

كانت تتحدث بنبرة أشعرتني بأنها على وشك الانفجار بالضحك.. كأنها ممثلة مسرحية، وكما نعرف أنا وهي جيدًا، كنا قد وصلنا للحظة التي نُدرك فيها الحقيقة، ولا يعود هناك أي فائدة من التظاهر بشيء آخر.. كانت تمتلك عينين واسعتين مثل بطلات القصص المُصوَّرة الجميلات، بينما انحنت رموشها الطويلة لأعلى عند الأطراف، لتُعطيها مظهراً ماكراً زادته هي عن طريق رتوش بسيطة موضوعة بحرص من الكحل.. ذكَّرني لمعان أنفها الرَّقيق بالعذراء في بورتريهات عصر النهضة.. شفتاها الرفيعتان الجميلتان بدتا كأنهما على وشك الابتسام، أو كانتا تبتسمان منذ لحظات.

تبدو وكأن الطفلة الجميلة التي كانت عليها في السابق تقبع في الانتظار، تحت قشرة المرأة المتيقظة الساخرة العاقلة التي صارت إليها.

قالت "دوروتيا":

- عدني أنك ستأتي لزيارتنا يا "سيرانو".

اقتحمت "ليليانا" الحديث:

- اتفقت معه بالفعل، سيكون هو ملجئي الأخير الذي أعرف أنه سينتظرني.

علَّقت "دوروتيا":

- أتمنَّى لو يحبني أحدهم بتلك الطريقة قبل أن أموت، أو لو كان هناك من يمكن أن يحبني.

قبَّلت خدِّي، فشعرتُ بشفتيها رطبتين وباردتين، وشعرتُ بنعومة لعابها.

مرَّت أسابيع، وفي اليوم الذي من المُفترض أن ترحل فيه "ليليانا" عن المستشفى لتُقيم في بيت أختها، اتصلت بي.. أرادتني أن أزورهما، فقد وصلت إليها أخبار من "روبين"! أرادتني أن أتصل بها وقتما أحب.

لم تنسني.. هي و"دوروتيا" معًا، وفي حالة من السلام.. ما يجذبني للأختين ليس السلام بينهما وإنما الحرب، بالإضافة لهذا، كان هناك شيء آخر يجذبني، وهو الطريقة الجذَّابة التي خرجت بها "دوروتيا" من تحت سيطرة "ليليانا".

كانت الخادمة تتوقَّع وصولي بالفعل، فسمحت لي بالدخول وقالت إن السيدتين تنتظرانني في الحديقة. كانتا تجلسان تحت شمسية، على طاولة حديدية، وظهراهما لي، تنظران عبر الحديقة نحو الغابة والإسطبل. كانتا ترتديان الأبيض، وهبَّت نسمة خفيفة من الهواء طيَّرت شعر "ليليانا"، دون أن تمس شعرة من "دوروتيا".. كانتا تتحادثان في هدوء وغموض.

توقَّفت للحظة أستوعب فيها المشهد الدائر أمامي، وأتساءل عن مدى حقيقة تلك الهالة من السلام والسكون الظاهرة أمامي.. أيمكنني أن أكمل سلامهما هذا بتكرار ما قُلته قبلًا لـ"ليليانا": "كلتاكما لم تقتل "ألكاتراتشو".. صحيح أنكما أصدرتما أوامركما لقتله، لكنكما لم تقتلاه.. أردتماه ميِّتًا، وكانت لديكما الوسائل التي تكفل موته، لكن، على عكس عواطفكما، لم تتمكن وسائلكما من العمل".

لم أعرف إذا كان ما أُريد قوله حقيقيًّا، لكن كل ما لديَّ هو نسخة القائد "نيري" من الأحداث، وبالنسبة لي، فقد فَقَدَ "نيري" معظم مصداقيته بعمله مُساعدًا لـ"أنتونيس" بكامل رغبته.. صدمني أن الحقيقة لن تُغيرِّ إجابة سؤال حيَّرني كثيراً أثناء تحقيقي، وهو: "هل من الممكن ألا تكون أكثر نقاط الموضوع أهمية فيما حدث حقًّا، لكن فيما تظنه الشقيقتان قد حدث؟".. فهما تظنان أن عشيق "دوروتيا"، "ألكاتراتشو كلوتالدو"، قد قُتل بأوامر منهما.. هذا هو ما طلبت "ليليانا" من "إلباتو" فعله، وما زالت تعتقد أن "إلباتو" قد فعله بناءً على طلبها. ذهبت "دوروتيا" لرؤية جثة حبيبها، وقد أشعرها منظر الجثة الرَّاقدة على الأرض بالرِّضا، وبأن أُمنيتها قد تحقَّقت! حينما كان حيًّا كانت شديدة العناد، وكانت تدَّعي أنه يجبرها على البغاء ويضربها بوحشية، بينما كل ما يكون الرجل قد فعله وقتها هو إثارة أعصابها! وقد ازدادت قسوة قلبها عند موته، فطلبت رؤية الجثة.. ولتتأكد من أن الحياة قد غادرته بالكامل، حرَّكت رأسه أمامًا وخلفًا بمقدمة حذائها.

من أول يوم وطنين فكرة أن الأختين قد أفلتتا بما فعلتاه لا يتوقَّف داخل رأسي.. أيكون معقولًا أن هاتين السيدتين، اللتين ترتفعان لمرتبة الأساطير بالنسبة لي، قد تسبَّبتا في موت شخص كانتا تحبانه، وتعيشان بقيَّة حياتهما لا ينهشهما الندم؟

كانت الأختان "مونتويا" تجلسان في الحديقة الكائنة خلف بيت "دوروتيا" وظهراهما لي. كان بوسعي تخيُّلهما وهما تقولان: "نعم، يمكنهما". كانت حياة هاتين السيدتين، أو على الأقل حياتهما معي، مليئة بالألغاز مع سقوط جريمتهما.. أشعر بأنهما، بطريقتهما الخاصة، من جنس مختلف عنَّا.

جنس أسطوري، شهواني، وبعيد بشكل شديد، مُثير، وغامض، ولو اقتربت منهما ستجدهما منيعتين.

بمجرد أن تبادلنا التَّحيَّة، سألت عمَّا لو كان مناسبًا لهما أن أكتب قصة "ألكاتراتشو". أجابتني "ليليانا":

- اكتب ما تحب.

بينما قالت "دوروتيا":

- كما تشاء.. لكن مَنْ "ألكاتراتشو" هذا؟ ما الذي تتحدث عنه على أي حال؟ لقد أزعجتني بموضوعه في آخر مرَّة زُرتني فيها، وقد أصابني الموضوع بالدُّوار.. بعض الأشياء التي قُلتها يومها كانت شديدة الجنون يا "سيرانو". هل ترغب في بعض القشدة الطازجة؟ لقد اشترينا بعضها اليوم من مزرعة الألبان.

ذكرت أنهما مرَّتا بآخر مزرعة ألبان تمكَّنت من النجاة، في ركن من المدينة غزته الآن المنازل الضخمة بحدائق المدينة حسنة التخطيط.. لم ترغب "دوروتيا" في أن يتم إغلاق مزرعة الألبان، لهذا وصل زوجها "آرنو" لمطعم يعتمد على المنتجات العضوية في وجباته ليقوم بشراء المزرعة، والإبقاء على مُلَّاكه السابقين كموظفين.. كانوا سعيدين للغاية بتلك الصفقة، ومُمتنِّين للغاية

لـ"دوروتيا" وزوجها لترتيبهما لها.

كثيراً ما يرسلون لهم اللبن الخام، والقشدة الطازجة، والزبدة كاملة الدسم، وهي نقطة استمرَّت "دوروتيا" في التحدث فيها قبل أن تقول:

- آخر مرَّة أتيت فيها لم أُرِك حديقة الصَّبَّار الخاصة بي، هل فعلت؟

قبل أن تُنهي جملتها، قامت على قدميها بالفعل، متجهة نحو الإسطبل. كانت البُقعة السرية التي تمتلك فيها "دوروتيا" حديقتها للصَّبَّار بجانب الإسطبل.. حكت لي عنها بينما نحن سائران:

- الصَّبَّار ليس مُنتشرًا مثل شجر "السرو" أو "الجاكاراندا" يا "سيرانو"، لكنه ملح الأرض بمعنى الكلمة.. كل ما يحتاج إليه هو قليل من الماء، ولا يحتاج للعناية على الإطلاق.. ولأنه ينتمي لنباتات الصحراء، فهو لا يذبل، لأنه يقوم بتخزين المياه في سيقانه.. وفي أجواء الجفاف الشديدة، يدخل في حالة من السُّبات، فينكمش، ويقسو جلده للحفاظ على المياه الموجودة بداخله من التبخُّر.. وعندما تتساقط الأمطار لا يتشبَّع بماء فوق حاجته، وإنما يمتص الكمية التي يحتاج إليها فقط.

وهناك جميع الأشكال والأحجام، فبعض أنواعه لها أشواك، بينما البعض الآخر لا شوك له.. أنواع الصَّبَّار التي ليست لديها أشواك تُدعى "عصارية"، ويمكن أن تكون صغيرة أو ضخمة الحجم.

يمكن أن يصل طول صبَّار "ساجواروس" ستين قدمًا.. هناك بعض أنواع الصَّبَّار المُنتمي للنوعية "العصارية" هذه بحجم كرة الكريستال، ويمكنه أن يعيش ثلاثمائة عام.. أنا كالصَّبَّار يا "سيرانو"، أو الـ"جاكارندا" الخاصة بـ"ليليانا".. يتساقطان بغزارة كل سنة ثم يجفان بالكامل.. لا يحتفظان بالماء.. شجر الـ"جاكارندا" جميل للغاية بالتأكيد، لكن الصَّبَّار هو ملح الأرض!

بدأت تُريني حديقة الصَّبَّار التي قامت بزراعتها حول بركة ماء صغيرة، والتي كانت مجموعة من نباتات الصحراء التي نمت في أصص زرع صغيرة امتلأت

ببعض التربة القاحلة: الصَّبَّار الأرضي، والكُمَّثرى الشائكة، الباهرة أو "الأغاف"، والدائم الخضرة.

أرتني أصيصًا بأربعة براعم مُستديرة ومُشعرة كالقضيب الذكري، وكانت قد قامت بتسميتها "صبَّار الرجل العجوز" بسبب الشعر الأبيض غير المنتظم الذي اعتلى قمَّتها. في أحد الأيام سقت "الرجل العجوز" بكثير من الماء، فبدأ يذوي من فرط التدليل.. بمرور الوقت لاحظت أن نصف النبات قد تعفَّن، وهذا علَّمها درسًا.. هكذا قطعت براعم "الرجل العجوز" الأربعة من المنتصف، ورمت الأجزاء التي تعفَّنت في بعض الرَّماد، متوقعة أن ذلك الجزء سيموت.. لكن العكس هو ما حدث، فالتجاهل ونقص الماء أعادا "الرجل العجوز" للحياة، من بين احتضاره على سرير من الرَّماد.

- تعلَّمت من ذلك "العجوز" ما هو مغزى تلك الحياة يا "سيرانو"، للبقاء بصحتك يجب أن تقطع وتشذب!

نظرت نحوي نظرة كلها معرفة وسُخرية، يشوبها شيء من التشكك والنُّعاس، من بين عينين نصف منغلقتين.

عُدنا في صمت للمكان الذي تنتظرنا فيه "ليليانا" تحت الشمسية. استمرَّت "دوروتيا" في سيرها متجهة للبيت، تاركة إيَّاي وحدي مع "ليليانا"، التي لم تتفوَّه بكلمة.. كان هذا من الممكن أن يكون وقتًا مناسبًا للحديث.. لتحكي هي لي عن "روبين"، ولأحكي أنا لها عن كيف هي حياتي من دونها.. لكنني لم أشعر بالرغبة في الحديث مع "ليليانا" في تلك اللحظة.. أفضل أن أُبقي عينيَّ على "دوروتيا". راقبتها بينما هي تسير خلال الحديقة متجهة للمنزل بشباكه الزجاجي الضخم الذي عكس منظر الغابة الموجودة خلفي.. لاحظتُ أنها حافية القدمين.. كانت خطوتها بطيئة، معتدلة، وفاتنة!

لو كان بوسعي أن أملأ ناظري من مشاهدة "دوروتيا" بدلًا من "ليليانا".. "دوروتيا" هي المرأة التي يمكنني أن أشاهدها ببراءة الأطفال، كما ينظر الأخ لأخته فيرى الجسد الغامض المبهم الذي يفتح الأبواب للعالم.

الفصل الرابع عشر

في ذلك الوقت تقريبًا، ظهر القائد "نيري" في الأخبار، وفي السجن كذلك.. راودت أحدهم فكرة رائعة بتعيينه نائب رئيس شرطة "مكسيكو سيتي".. جعله المنصب مشهورًا، قبل أن تكتشف الصحافة أن ابنه هرب، وهناك جريمة اختطاف مرفوعة ضده.. أرغمت الجلبة الناتجة عن إثارة هذا الموضوع "نيري" على الاستقالة في اليوم نفسه الذي شقَّت فيه القصة طريقها في الصحف.. بعدها بفترة قصيرة لاحقته الشرطة لمكان اختفاء ابنه، حيث أنقذ رجال الشرطة طبيب وسكرتيرته، كانا محتجزين كرهينتن لشهرين.. رأيت وجه "نيري" المألوف في نشرات الأخبار بينما هو يُخبر الكاميرات أن القضية المُلفَّقة ضده هو وابنه تعود جذورها لخلاف قديم بين صفوف الشرطة.

كان ابنه يهرب من القضايا الأخرى التي رفعها عليه أعداؤه.. وعندما سألوه عن أسماء هؤلاء الأعداء كانت لديه الوقاحة الكافية ليتَّهم رئيس الشرطة الفيدرالية الذي ينافس شرطة المدينة منذ فترة طويلة!

قال "نيري":

- ابني كان هاربًا لأسباب تتعلَّق بالدفاع عن النفس! لقد قبلت منصبي معتقدًا أنني سأُحسِّن سُمعته.. الأمر بأكمله فوضوي تمامًا، وانظروا كيف انتهى بي الأمر.. هذا هو الحال مع نظام العدالة المكسيكية.. لا تعرف أبدًا مع مَن تتعاون!

بدت كلماته تلقائية وصادقة.. أو ربما كانت فقط ساخرة وبليغة.. لم يذكر "أنتونيس" في أي من الحكايات الجديدة.. اتصلت بالرَّفيق "فيرناندیس" لأسأله عنه، فأخبرني أنه اختفى! وفي مكتبه يقولون إنه غادر البلاد.. سألته لو كان هارباً.

- سيكون هذا هو الحل المثالي له يا ريس، فلو ظهر، ستكون محطته التالية هي السجن!

عادت "ليليانا" لي مرَّتين حسب اتفاقها مع "دوروتيا".. في المرَّة الأولى انتهى بي الأمر محتجزاً في المستشفى، وفي الثانية فقدت إصبع يدها اليُسرى الصغيرة.. لن أقول إن هذه النُّزهات قد خرجت عن مسارها، كما لن أقوم بالتهويل لأنني مُعتاد على المغامرات المشابهة.

أتذكَّر قليلًا جدًّا عن مغامراتنا في تلك الفترة الضبابية السعيدة، التي امتلأت بأصدق، وأعز لحظات لم يكن لها مثيل، في آخر أيامي مع "ليليانا مونتويا".

لم تكن هناك لحظة من الملل في هذا الضباب.. كل لحظة قضيناها بشكل ممتع على الرغم من أنني لا أتذكَّر أيًّا منها.. كل لحظة تومض بداخلي، حقيقية كإمبراطورية مفقودة لحضارة مختفية.. ما تبقَّى كان كافيًا لي؛ اسم بار، وردهة مظلمة، ومنظر العرق وهو ينزلق على ظهر "ليليانا" العاري.. بالنسبة لي، لم أجد ما يستحق الإشارة إليه بمثل هذه السعادة اللا نهائية، في بقيَّة حياتي المُملَّة الاعتيادية.